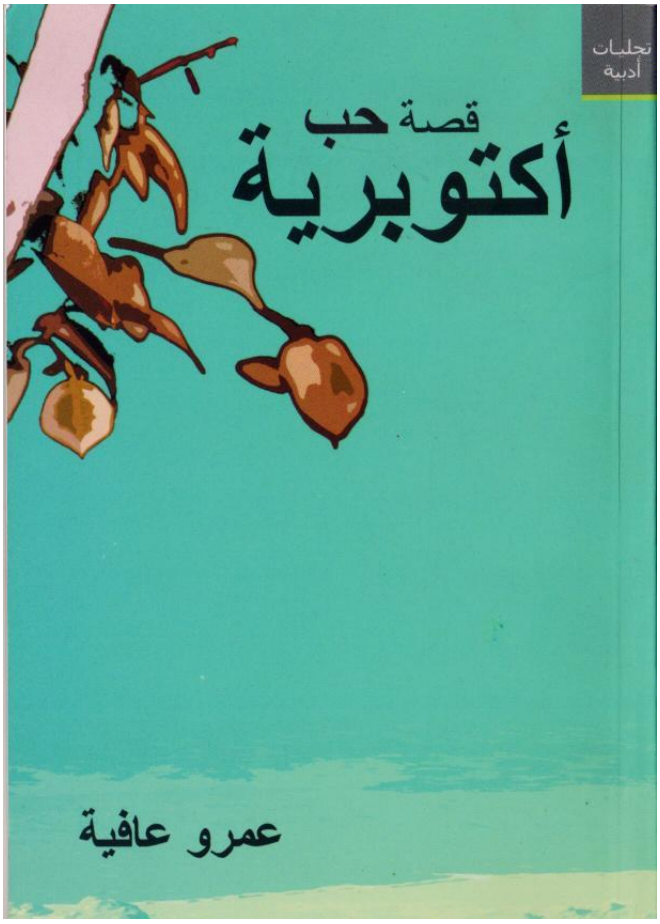

عمرو عافية

قصة حب أكتوبرية

رواية

دار ميريت

القاهرة ٢٠٠٦

قصة حب أكتوبرية

رواية

عمرو عافية

الطبعة الأولى ٢٠٠٦.

(ج) دار ميريت

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧٦٠ (٢٠٢)

www.darmerit.com

merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٢٢٦٦٤

الترقيم الدولي: 977-351-274-6

..... وكانت العرب في جاهليتها وإسلامها مع شدة بأسها وغلظ أكبادها ترق عند العَزل وتلين، حتى مات كثير منهم كمداً وشغفاً، وكانت تستحسن منه ما هو مستهجن عند غيرها من طوائف الأمم، ألا ترى أن الشاعر منهم كان ينسب بالمرأة الجليلة ذات الحسب والعشيرة المنيعة، فلا ينكرون ذلك ولا يغيرونه حتى كانوا ينسبون بنساء الملوك، فلا يكون منهم له نكير.

ابن حمدون

- ١ -

..... فقط عندئذ عليكِ برفض قراءته. قد تتعجبين عندما تشاهدين خطي المعوج على الظرف وترددين برهة قبل أن تقرري فضه. أظن أنك ستحاولين فتحه أولا من جهة اللاصق كي لا تقطعي التتابع المستمر للونين الأحمر والأزرق اللذين يتناوبان حد الظرف.....أم لا؟! ....أنت سوف تمزقينه من الجانب الأقصر . ألم تفعلي هذا فعلا ؟ هل كنتُ قد نسيتُكِ؟ ...

تندهشين لماذا هذا اليوم بالذات كي أكتب لكِ بعد هذا البتر الذي دام أكثر من ثلاث سنوات منذ أن سافرتِ نهائيا إلى هناك . نعم لماذا في هذا الشهر- أكتوبر- .....يا له من اسم بعيد بارد ....أنا الذي كان لي متعة في ترديد هذا الاسم - أكتوبر- ...آسف أعرف أنك دائما ما تصابين فيه ؛ كم مرة جُبرت لك ذراع أو ساق .....أرجو أن تكوني بخير في هذا الأكتوبر .....

توقفتُ لحظة بعد كتابة هذا الرجاء لأني كتبته نتيجة بقايا عادات أخلاقية عندي، ظننتُ أني قد تخلصتُ منها نهائياً .....” نهائياً “ كلمة لاتوحي بأية نهاية. هذا التنوين يجرنا لاستمرارية بغيضة . ....!

هذا الأكتوبر- عيد ميلادي - ...أعرف أنك تتذكرينه ....مازلت ....ذاكرتك القوية التي تنقض على الأشياء إلى أخر مدى. تتذكرينه لأنه رقم يخص شخصا كنتِ تعرفينه .....

أفكر ثانية لماذا أكتب لك أنت.....اطمئني ...من مات هنا لم يُبعَث بعد. لماذا أكتب؟ ؟؟ ربما لأني لم أعد استطيع أن أستمع إلى موسيقى باخ ...أو لنقل لأن الشعيرات البيضاء تزداد بعنادٍ غبي في فوديّ .

عليكِ أنت أن تتصوري لماذا أكتب الآن . ربما ينتابك الضيق لأني أكرر ما أكتب، لك ـ لهذا ـ مطلق الحرية في القاء كل أوراق خطابي في سلة مهملاتك النظيفة ...لن يجبرك كائن ما على مالا تريدين ...وهل أجبرتُ أنا؟ ....المحامي يوهمهم بذلك .

أكتب إليك لأكلمك عنها. خطأ. أكتب لأني أريد أن أتكلم عنها .... ولكن فعل الكتابة في حد ذاته ممل ومع هذا فهو يمنح لي وجودا مزدوجا ـ أنا مُقابل ـ ولربما كان من الروعة أن هذا المقابل يساويني وهو يعرض أمامي تلك المفردات المرئية التي يختزنها عقلي الذي يتهمونه الآن ...

لكن مقابلي ـ وللبشاعة ـ ينتفي جماله في نفس اللحظة لأنه محدود بتلك الحروف التي تتوالى على الورق. هل هذه الأشكال الدودية قادرة على منحك القدرة على تبيان مَن أتكلم عنها ؟ أهذه الخطوط المتشابكة توضح لك ماهيتها .....هي ؟ أنا هنا لا أتكلم عن هي التي هي هي ....لكني التي أحتويها أنا. تقولين عليّ " كاذب ". يُسميني أصدقائي " الدجال ". هل بدأت القصة كلها من هذه النقطة؟ الإجابة ببساطة ....لا. قد تتصورين أن لها لحظة بدء ....لكن ...عندما ترين فيلماً لأول مرة .....ثم تكتشفين في منتصف التتابع للصور على الشاشة أنك تعرفينه رغم أنك لم تشاهديه من قبل.فقط تعرفين ....وأن الأحداث التي مضت أنت تعلمين خباياها التي يخفيها المخرج حتى لا يفسد متعة المتابعة، فترين الأحداث المقبلة أسرع .

و لكن هل يجعلك هذا تنسحبين من العرض، أم أنك تتسمرين في مقعدك لأمل بعيد مبهم أن ما تدركينه قد يتبدل و يتغير ....؟....لكن هيهات ، هيهات ....يتم التتابع مستمرا بغدر أوْلى بالحقائق عن الصور المتلاحقة .

-٢-

اسمعي أو بالأحرى اقرأي . دخلتُ مكتب المدير وأنا أعرض عليه تصوري للديكور الخاص بفيللته الجديدة ، هو يقدرني و أنا أعرف هذا ، لكنه لايفصح أبدا . بيننا لعبة مثل القط والفأر ، مكررة دائما ولكنها غير معادة ....يعاملني كابنه ....

دخلت هي. في البدء لم يكن هناك أي شيء مميزاً كي يجذب انتباهي إليها .....عدا .....هل هذه الـ(عدا) تُخلق الآن لأني أعيد تصور الأشياء بعد انتهائها أم أنها كانت موجودة فعلا ؟ هل تذكرين تلك الدماثة المنسجمة المتعالية التي فقدها معظم المصريين. هذا الجو المهيئ للسحر الرقيق ...ربما لم يثرني أكثر من هذا الـmood المغلف. أم تُرى استدارة وجنتيها التي لا تبين إلا بتلك الضحكة نادرة المثال التي تُظهر أسنانها فجأة وكأن كائن خفي يدغدغها بدعة ..... فُجاءة ظهور بياض سنها مُبهجةُ الفؤاد الراني .....

لم توجه إليّ إلا أدنى اهتمام. كان كل حضور روحها مع مديري العزيز. تنظر إليه باعجاب لا تخطئه عين . لا أنكر أن له سطوة على جميع من يعرفونه، سطوة الثقة الحنون المطمئنة ، فهو صاحب حضور جارف ...

أنت تعرفينني جيدا . تقولين عني You're so vain. تغنيني إياها. أهديتني اسطوانتها قبل هجرتك إلى هناك . لستُ بكل الغرور الذي تتصورين. ربما تماسكي أمام نفسي، ثقتي بوحدتي والمحاورة التي أتقوى بها ...هل قرأتِ لكورتاثر؟ أتذكر قصة قصيرة له عن رجل يتحول إلى سمندر، كائن مائي خامل. ويظل هذا الرجل المتحول يفكر في السمندر الذي

تحول هو الأخر إلى رجل يفكر أيضا فيه ....لكن هذه اللعبة تعوق التقدم ...ببساطة كان لقاء عابرا، ربما لم يستمر أكثر من عشر دقائق. تبادلا بعض الأسئلة واجابتها .....

عدا هذا لاأتذكر إلا لون بشرتها النحاسية وحركة كتفها لأعلى وهي تضحك بصدق نقي. تُرى لو كانت تعرف كيف سأفكر فيها فيما بعد، هل كانت تتحول هكذا و تكمل مسارها ؟

ما أبدع استعادة تلك المنعمات في رؤيتي الأولى لها ، وكأن الذاكرة جذلى بالرجوع للبدايات.

وماذا أيضا ؟ نعم ! أتذكر انعكاس شمس العصر على زجاج المكتب واللون الذهبي الجميل على الحائط، لون الدفء الخاص، وراحة عُصُر شهر أكتوبر . هل قلتُ لك أنها أتت أيضا في أكتوبر؟

وماذا أيضا؟ كيف تتداعى التفاصيل بكل تلك الدقائق؟ نعم.اللون الرمادي الداكن الذي كانت ترتديه.عرفتُ فيما تعد أنها تحب اللونين الأسود والرمادي الداكن ـ وليس الفاتح الباهت ـ الداكن الذي يوحي بالعزة والأنفة، الذي يذكرك بجلال الأسود دون تصريحه.

أذكر أيضا انهدال خصلات شعرها الكستنائي على جبينها. كانت تجلس أمام المدير وأنا واقف بجواره نصف محني ثم معتدلا محاولا أن أتأملها ولكن ليس بالدرجة الكافية، ففي هذا الوضع يكون المرء جزءاً من اللوحة، قد يفارقها لحظات للتأمل لكن الرجوع القاسي يكون سريعا.

ثم اختفت. نعم اختفت.لا أذكر كيف حيتنا. هل بسلام بيد أم بإيماءة رأس. هل وجهت لي كلاماً؟ فقط اختفت. لم أتحرك. لم أنظر من النافذة. أكملت شرح تصميماتي للمدير كأن شيئا لم يحدث. يا للسخرية ، وهل حدث

شيء فعلا ؟ أسهبتُ في التفاصيل ثم قطعت حديثي فجأة وقلت له :
"ابتسامتها رائعة. لم يعد مثل هؤلاء الناس موجودين ."

فقال باقتضاب : " نعم. حركاتها أنيقة. "

اختفت. هل كنت سأفعل أي شيء أكثر من هذا ؟ .....لا ....كل ما بقي منها رؤية مبهمة تحوم حولي، هزة كتفها و هي تضحك .....كنتُ مطمئناً تماماً لأني سأقابلها مرة أخرى .

لا تقولي حب وكلام خاو بلا معنى . .....عندما تعثرين بالصدفة في مكان لايمكن أن تتوقعي منه شيئا ـ على قطعة رائعة من الجمال الخالد ـ سر فرعوني مدفون ـ لا تفكري في أثر هائل أو تمثال فخم ....فقط قد تكون قلادة متقنة الصنع في أرض لم تكوني تشكين أن الفراعنة قد وطأوها من قبل، خبيئة ....ربما يكون جمالها في الجيد الذي احتوته ليلة ما في انتظار حبيب غائب منتظر رجوعه من رحلة صيد شاقة لتماسيح نيل ما وراء الأفق

....أو أن يكون كل جمالها في اللون الأزرق الملكي الذي يتجلى به الفص ....أو التتابع المتوازي لسيقان نبات اللوتس الذهبي المكون للشكل البيضاوي للقلادة .

لو فكرت لحظة في امتلاكها ، تدركين سذاجتك وينتابك الخجل لأن مالكتها الحقيقية موجودة حتى ولو تحللت وذهبت بلا رجعة أو برجعة لعالم أبدي مزهر خالد ..... كل ما شعرت به هو التسامي لوجود مثل هذه النادرة التي شعت من خبائها .

—٣—

قال لي المحامي الذي أتى به مديري : " قص كل شيء ." رفضت أن أتكلم معه. الخبيث خدعني. استدرجني للحديث عنها. هل من الممكن أن أقاوم لذة الحديث عنها؟ لم أقل له كل هذا. أنا أكتب لكِ لأذكي هذه النار الدافئة التي تنير الصقيع الذي يتملكني، التي أُأججها لكي تحجب هذا الضوء الأصفر الذي وضعوه لي كي يسلبوني هبة التذكر. اللون الأصفر يُهلك الخلايا و يدمرها. يظنون أنه لون مريح للأعصاب وهل لا يزداد المجانين جنونا إلا في مستشفياتهم. يريدون أن يمسحوا ذاكرتي. في الفترة السابقة منعوني من الإستماع إلى أي موسيقى (وها هم يسمحون بها الآن) غير أني لم أتنازل عن الدندنة لمتابعة اللحن كما كنت أفعل وأنا صغير ، عندما كنت أرفع صوت الموسيقى وأغلق على نفسي باب غرفتي في انتظار اللحظة الحاسمة القصوى في اللحن. يعلو اللحن حتى يكاد ينفجر وقبل هذه اللحظة المتشظية، تدخل أمي عليّ ولا أسمع ما تقول ولا أرى سوى فمها وهو يلقي بصراخ لا أسمعه ...فتعودت أن أستمع بصوت خفيض لدرجة أن النغمات المنخفضة تختفي و يظل عقلي يرددها إلى أن يعلو ثانية. الآن أنا أعيد كل النغمات الخاصة بها هي. أسمعها بلا عزف، بلا صوت عال أو خفيض. أعزف رؤياها بلا رؤية، ربما هذا ما يجعلني قادراً على احتمال غيابها الآن. الغياب المهلك للروح و الجسد. أقاومه بعزفها كاملة الآن أمامي. كنتُ قد تغلبتُ على الجدران منذ زمن ـ الجهلة لا يدركون ـ أتابعها بلا أدنى خوف من أن تضيع لمساتها الخاصة، عبقها. أراها عندما ترش عطرها في الهواء ثم تدخل فيه

تتخلله و تغشيه. أرى الرذاذ الذي نظن أن لالون له، أراه أبيضَ معلقا في الفضاء أمامها وأرى جسدها الفتي الرائع وهو يُمنح للعطر المعلق بحركة بسيطة من جذعها. أرى حافة عضلة الرقبة وهي تنقبض عندما تلتفت ويطير شعرها منزوحا بفُجاءة الحركة لتمنح مكانا يعز على الرؤية ؛ منابت شعرها وراء أذنها .

هذه اللفتة تذكرني بالبحر عندما تثور مياهه على الحواجز الصخرية. يهديك الموت مشهداً لا يتعدى معشار ثانية. يمنحك عالماً لن يتكرر أمامك حتى ولو حاول البحر والموج والصخر مراراً وتكراراً . (لمحت عيني كلمة "الموت" التي كتبتها بدلا من " الموج "، فكرت أن أشطبها وأصححها، لكني لن أفعل). كل صدام بين العالمين يخلق مشهداً طازجاً لحظي الوجود ، ولكن مشهداً واحداً منها هو الذي يأسرك وسيظل يأسرك..... لحظة اقتنصتها وحدك من تواجد الأشياء، لحظة لو حاولت أن تصفيها تُخادعك وتظلين تتذكرين لمرات ألف تفاصيل دقيقة سطعت من قبل،.....مثل وميض نقطة ماء بعينها قبل أن تتهاوى بعد ارتطامها بالصخر وقبل أن تمتزج مرة أخرى بالبحر المراوغ .....مثلها مثل تذكرك لانعكاس شعرة واحدة لم تتحرك بالسرعة الكافية لتلحق بخصلتها كلها فتظل معلقة في مخيلتك تقسم لون الرقبة الجميل والجلد المشدود المتوتر بخط وهمي، ثم تبدأ في التحرك حتى تغيب هي الأخرى في عباب الشعر .

كم كانت حركتها هذه وهي تتعطر تُبهتني بلطفها.

—٤—

قلتِ لي في خطابك الوحيد الذي أرسلتيه إليّ في بداية سفرك ، أنك تتعجبين أنهم لا يملكون هناك بحراً أوحتى نهراً أو بحيرة. أما ما يتجمع حوله الناس هو القنوات الصناعية الكبيرة التي شيدوها لتجميع مياه الأمطار، وكيف يتناثر حولها العشاق ويتحلق الأصدقاء لمشاهدة هذا المجرى المائي المزيف؟قد يكون هو نفسه ليس بخادع، فهذه طبيعته الأسمنتية ولكن ماذا عنهم؟

أيكونون هم أيضاً كائنات معدلة ...وألا يجوز أن أكون أنا أيضاً كائناً معدلاً أو كائناً مغلوطاً كما قالت هي ؟

نعم سمعتها بنفسي تتكلم مع المحقق. سمعتها ورأيتها. عندما تراقبين لفترة طويلة تدركين أشياء كثيرة للغاية وبلا حدود. بعد فترة عندما تنقطع المراقبة يستمر معك الأحساس بالمعرفة؛ تستطعين الرؤية بلا نظر، والسمع دون أن تنصتي. الأفلام الحديثة لن تكون في حاجة إلى الممثلين الأحياء، فكل المعلومات المتاحة تجعلك تعرفين كيف سيمثل أي منهم .. هكذا حالي معها. بعد كل المهمهات واللفتات والانفلاتات الحرة ....أعرف أنها قالت هذا الكلام وأعرف كيف قالته. ستتسع حدقة عينها اليمنى قليلاً ويزداد اسوداد قزحيتها ويكتمل احورارها فتزداد جمالاً وسلطة وتميل قليلاً في اتجاه المحقق الذي سيتألم بشدة وهو يراها تتكلم هكذا وهو بعيد عنها جدا ومهما حاول الاقتراب فهو اقتراب زائف خادع، يشرد منها وهي تتكلم ويشعر أنه سوف يفنى الآن حسرة لسبب لا يدريه، ويحاول الرجوع المضني

لصوابه عندما يتقاطع شروده مع نبرة خاصة حادة من مقطع لكلامها فيُكمل دوره المرسوم الذي عليه أن يتممه.

أنا أيضا لم أخرج عن دوري المحتوم ولكن نَصّي ضاع في نظر الآخرين ، فنصي ممزوج داخلي. كلمات تدور وتدور وتطن بلا انقطاع .... هل لو سألتك كيف يتحول نور اللمبة النيون إلى هذا الاصفرار المنعكس على الورقة تُجيبينني؟

تئزّ اللمبة ويأتي صوت متقطعاً منها نتيجة لفساد مُبْدِء شرارتها .

عندما تُخرَب البدايات نحترق .

-٥-

كنتُ قد حاولت أن أعرف اسمها. لمحت البطاقة التي قدمتها للمدير قبل أن يضعها في حافظته.خطفت أول اسمين فقط ، اسمها واسم والدها، أما اسم العائلة فاختفى قبل أن أراه. بعد عدة أيام فكرت أن أتحايل على المدير لأعرف اسمها كاملا. لم يتذكر. ربما الموضوع لا قيمة له الآن ولكني تصورت نفسي عدة مرات أسرق حافظته بعدة طرق. هذه التصورات أعجبتني كما أنها أسعدتني. لم أقدم على تنفيذها لأن نتيجتها كانت ستؤدي بي إلى السخف. هل استهجنت الفكرة ـ السرقة وقتئذ؟ أعتقد أن هذا لم يؤرقني. نستعيد السؤال مرة أخرى ....هل كانت هذه التصورات هي البداية ؟

لكم امتدحتني سهام السكرتيرة قائلة :

" لم نر في التزامك أحداً من قبل. يا لك من شخص نزيه."

ألمح نظرة مكر في عينيك .....ليس كل مادح بمزدلف لغرض. نعود للصفات التي وضعتها منهاجاً لنفسي وكنتُ أظن أنها دائمة. ساقص لك قصتي مع الكذب.

تصورتُ وأنا صغير، ربما ابن تسع سنوات،أنني كذوب، فقررت أن أعرف مقدار سوئي هذا. عزمت عد الكذبات التي أقترفها كل يوم. من أو ما الذي أدخل في روحي أني كذوب؟ لست أدري ....حاولت أن أتذكر ولم أفلح.

مر أول يوم لعجبي ولم أكذب،عزيت هذا لكوني أراقب نفسي وأضعها موقع الاختبار. لكن مر اليوم الثاني والثالث ناصع البراءة.

(من بعيد وأنا أتأمل هذا الآن، أحسب أن هذا ربما كان بسبب كوني قليل الكلام و منطو إلى حد ما.)

في اليوم الرابع حُتم عليّ أن أكذب لأنقذ نفسي من خطأ ارتكبته. لاأتذكره الآن ، قد يكون كسري لشيء ثمين. اتخذت قراري سريعاً. لم أكذب واعترفت ببساطة بفعلتي وتهيأت لاستقبال عقاب ببطولة شهداء أهل الخندق الذين كنت أعرف قصتهم من وقت قريب. رأيت نفسي مدفوعاً معهم في خندق ملتهب متأجج ...غير أن كل شيء مر بسلاسة ...حتى فكرة الاستبسال والشهادة ضاعت ولم تعد لها أي قيمة. فقررت أن لا أكذب قدر استطاعتي. ربما كنت طفلاً خبيثاً مناوراً. كنت أتيقن رغم نجاح اختباري أنه لابد لي من الكذب في وقت ما، فتركت الباب مواربا، بهامش ضيق. ابتعدت عن الكذب وبنيت داخلي شخصية مؤمنة بأن الصدق مريح .....لكن كان هناك شخصية أخرى تسخر منها دائماً ولكنها لم تحاول أبدا أن تفرض سيطرتها.

هذه الشخصية لم تجرؤ على فتح الملفات لمعرفة أي معلومة أخرى عنها، فقط سألت السكرتيرة هل ستأتي مرة أخرى؟ بعد شهر.كانت متمهلة. كان عليّ أن أنتظر.أجابت : بعد شهر وسنكون قد أعددنا لها ما طلبته من تغيرات في الشقة. لم يكن لي أية صلة بهذا الجزء من العمل ...هدم الحوائط واختصار بعضها. قد لا يحتاجونني في هذه العملية فلست الوحيد هنا.

لكنني حفرت التاريخ في ذاكرتي. لا أستطيع أن اقول أنني تبدلت أو اختلفت خلال هذه المدة.

الحدث الوحيد الذي أتذكره وقتئذ كان تاريخ ميلادي، الذي مر بعدها، لسبب بسيط هو اتمامي لرقم الأربعين التي يقولون عنها أن الرجل في أشده. أراد الأصدقاء حفلا كبيرا بهذه المناسبة ـ اتمام العقد والدخول في آخر، غير أن الاحتفال تقلص وانسحط إلى حفل صغير وممل إلى حد ما.

كهل هي الصفة التي تطلق عليّ الآن .

كنت دائما تعلقين على ملامحي الخارجية وتغارين لأن جسدي لم يبرح العشرينات قط وتتهمينني ضاحكة بأني أخفي في مكان ما صورة قبيحة لدوريان جراي فيقاطعك كمال مغيظا إياك : بل أن روحه الجميلة هي التي تقبض على جسده فلا يهرم ويهددك باعلان أين تخبئين صورتك أنت.

كان كل هذا يسعدني حتى مللت ظاهري هذا. وأصبحت أضيق بنظرة الدهشة التي تعلو الوجوه الجديدة السائلة عن عمري، ثم أصبحت أجد لذة في هذه الدهشة وأتعمد أن أقول عمري منهياً سنة أو اثنين حتى أراقب الانفعالات. غير أنها عندما خمنت عمري بتلقائية وألقت به في وجهي ببساطة ...لا، لن أقص لك الآن هذا اللقاء كي لا أفقد متعة كتابة الحدوتة.

هاتفني أخي الذي يعمل في جنوب أفريقيا متمنياً لي عيد ميلاد سعيداً، جاء صوته دافئاً مبعداً عن ذهني شخصيته العملية الجادة.

أما والدي الذي يعيش مع زوجته في القاهرة وأمي التي تعيش مع زوجها في روما فلم يتذكرا، وهذا ما أعتبره دائما حدثاً عادياً ....لا لوم تجاهما ولا اعتراض ....قبول صامت .

-٦-

لماذا أعيد عليك بعض التفاصيل التي تعرفينها؟ الكتابة تؤرخ لنا ...حتى لا نترك في العراء .

عراء ...هراء . الحلة ورد غطاها ...مكرر. معاد. لا يهم.

رسائلي للشمس

تعود دون أن تمس

رسائلي للأرض

تعود دون أن تفض .

هل تحبين أمل دنقل؟ هذا السؤال يشبه هل تحبين برامز؟ فهل تحبين فرانسواز ساجان؟ فيلف السؤال ليرجع هل تحبين أمل؟

كان عليّ أن أسألها أيا من هذه الأسئلة ....سألتها بالفعل هل تحبين أمل دنقل؟

شهر كامل مر. كان عليها أن تأتي يوم السبت الأخير من الشهر. انتظرتها. ربما كان الشيء الوحيد الذي هيأت نفسي لها هو حلاقة ذقني، إلا أن هذا جعلها تلتهب و تحمر. تشتتت أحاسيسي. تمنيت أن أراها فوراً ولتذهب الذقن إلى الجحيم عقاباً لها على التهابها في وقت غير مناسب ...لكنها لم تأت و لم تعتذر عن الميعاد. ذهبت إلى سهام و سألتها عن الرسومات الخاصة بها. رأيت التعديلات التي طلبتها في الشقة. اختارت شقتها في الدور السابع ـ علمت فيما بعد أنها تهوى الأدوار المتوسطة الأقرب للعلو، طلبت هد حائط بين حجرتين، وازالة الواجهة الخارجية وتحويلها

إلى حاجز زجاجي قابل للفتح.

أنا رأيت هذا المكان عندما سكنت فيه. امتلأ بالنباتات العملاقة الجميلة، تكمل مساحات الخضار التي تواجه البناية. لمحت أيضا اسمها مكتوباعلى الملف، ثنائي أيضا، وأنا أخرج من الغرفة سألت السكرتيرة بعفوية: ألا يزال يوجد وحدات خالية في هذه البناية . ....فأومأت بنعم.

أراحني عدم مجيئها. كأنه أزال التوتر الذي كان يتصاعد داخلي حتى وصل إلى عدم الاحتمال، هذا السبت المنتظر منذ أمد. فلتأت في أي وقت تشاء. أصبحت أنتظر بحذر أشبه بحلم وكأني أتشوف ما جرى.

آسف أحاول أن أسيطر قدر الإمكان على اهتزاز يدي. أرجو أن تتمكني من قراءة الخط ـ كنت أتشوف قدري معها فكانت فترة الغياب راحة ما قبل البداية.

يومين ثم لاحت . دخلت إلى المدير واثقة ضاحكة. تعمدتني دون أن تراني. ابتسمت للسكرتيرة ثم غابت داخل حجرته بعد أن سمحت لها سهام.

لو قلتُ لكِ أن طرف فستانها وهو يلف برشاقة حركة دخولها أزعجني وأغضبني لما كذبت عليك.لم؟ لست أدري. بل لقد جعلتني أحتد على المسكينة سهام . لا . يبدو أني بدأت أتصور الأشياء وليس استعادتها.

هل يختلط عليّ الأمر الآن؟ يدي تفقد السيطرة على الكتابة. احتككت بسهام قبل أن أدخل للمدير.كم كنت أود أن أعتذر لها الآن ...لكن سهام شهدت في صالحي ....هذا يعني أنها لم تغضب مني ساعتئذ.

دخلتُ بعد فترة مناسبة. أومأت برأسي لها. قال المدير بألفة مخاطبني وكأنه يشكوها لي:

" تفضل يا سيدي! كانت قد قررت أن تتراجع عن الشراء ، بل و مستعدة لدفع الشرط الجزائي، لولا أن والدتها وأختها قد أعجبتهما البناية وموقعها.

هممت أن أقول أنها حتى لم تر التعديلات ولكني ابتسمت وأنا أنظر لها.

نظرت إليّ بابتسامة خجلى ولكنها قالت بثقة:

" أنا لم أقل هذا الكلام. كنت قد فكرت فقط .."

بأي بساطة تتعامل معه !

-٧-

آسف لأنني قطعت الرسالة . ربما لاحظت أن خطي ارتعش و أصبح غير مقروء ، لكني سأترك لفطنتك المحاولة. أيضا ستلاحظين أن لون القلم تغير. انتابتني أول أمس نوبة مفاجئة من الغثيان و الحمى لذلك تركت القلم يقع من يدي و ينكسر.

لو كنت أليق بهذا المكان لكنت اتهمتهم بمحاولة قتلي. الأطباء والممرضات أو حتى السجان المسكين الذي يجلس خارج الغرفة. ولكني أضحك من مجرد تخيل هذه الفكرة .

هل هذا الغثيان وتلك الحمى التي انتابتني نتيجة لاحساسي بالفقد وأنا أراها تتركني تلك المرة وكأني لن أراها مرة أخرى؟ لم كل هذا ومن السهل الوصول إليها؟ تصورت أنها بانهاء إجراءات شراء الشقة من البناية التي شيدتها مؤسستنا سوف تختفي. قلت ستشتريها مثل معظم من اشتروا الشقق في الفترة الأخيرة، فقط للاستثمار ،قد تغلقها إلى الأبد أوتبيعها بوسيط . كان عقلي مشوشا تماما وهي تكمل حديثها مع المدير. تلك المرة استأذنت أيضا ببساطة و غابت. التفتُ إلى النافذة ورأيتها وهي تركب سيارتها ولمحت رقم السيارة وحفظته.اكتشفت أنني ممسك ببطاقة. قبل أن تذهب نهائيا سألتها عن وظيفتها، أخرجت بطاقة وأعطتني إياها.

"يلدز ماجد. الأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا ."

تبادلنا حوارا سريعا:

" يوجد لديّ صديق يدرس في الأكاديمية."

" أي قسم؟ "

" لا أتذكر. "

" إذا أردت أن توصي عليه فلا تتردد. قل لي. "

" لا. أريدك فقط أن تشدي أذنه. "

" هذه هي التوصية الصائبة."

دار هذا الحديث كله قبل أن أفكر به، حجة لاواعية ليحق لي مهاتفتها فيما بعد. الرقم المدون هو هاتفها في العمل دون شك.

شككت أن يكون لها بطاقة أخرى،أكثر حميمية، مدون عليها هاتف منزلها أو رقم المحمول الذي لمحته معلقا في حقيبتها.

ولكن أي فرحة تعتريني! أصبح لدي رقمان خاصان بها.

و أنا أكتب الآن،تصورت نفسي أستغل هذين الرقمين بعمل"رُقية سحرية ". رأيت بخورا و عفاريت ضاحكة. مشهد هزلي. ألست معي ؟

رقمان : رقم هاتف ورقم سيارة. سيارتها رمادية اللون ونفس ماركة سيارتي ولكن سبور. انطلقتُ بها وعلى وجهها بعض العبوس، ربما شاردة الذهن. تابعتُ السيارة حتى اختفت وهذه المرة أقبض يدي على رقمين.

ظلت ملامح وجهها وانطلاقة سيارتها تتملك فكري حتى رجعت إلى البيت رغم أنني أنهيت عملي بصرامتي المعهودة. ركنت سيارتي ولمحت سيارة مديري في مكانها المعتاد. دائما ما يصل قبلي،يسكن في العمارة المواجهة لي،كلانا على الكورنيش ....ستانلي .

حضرت لنفسي غذاء سريعا . ..هل أسرد تفاصيل كثيرة؟ ارجعي لما كتبته لك. يتراءى لي أني أحاول أن أسيطر على عالمي الذي يوحون لي بانفلاته مني. اتمسك بعالم يضيع وتنغلق عليّ الفرجة البسيطة للباب .

جلست في الشرفة أمام البحر ومعي دليل أرقام الهاتف. بحثت عن اســـم "ماجد ". ماجد ...وقعت عيني على الرقم المدون في بطاقتها. هو رقم هاتف منزلها إذن.لماذا تصورت أنه رقم العمل ؟

"ورثة المرحوم ماجد عبد الحميد ..تقاطع شارعي ـــــ وـــــ ، ستانلي."

يا إلهي! أهي قريبة مني إلى هذا الحد؟ الشوارع الداخلية لستانلي.

لم أصبر. غسلت أسناني جيدا حتى كدت أن أدميها. تمشيت في الشوارع سائلا عن أسمائها،حتى وجدت التقاطع. فيلا على الطراز الأنجليزي ..صغيرة بحديقة متوسطة وسور منخفض. تفصلنا خطوات قليلة. خفت أن تلمحني و أنا لا زلت لا أعرف تفاصيل الفيلا أو مواعيد أهلها .

رجعت سريعا إلى البيت واتصلت بسمير زميلي في لعبة التنس وصديقي الذي يدرس في آخر سنة في الأكاديمية. تكلمنا عن أشياء كثيرة وحددنا موعداً للعب، ثم سألته بلا مبالاة متعمدة و كأن الموضوع مر ببالي مصادفة :

" هل تعرف يلدز ماجد ؟ "

انشرح صوته وقال بانفعال : " ديزي ؟ إنها رائعة ."

كررت وراءه : " ديزي ! "

" نعم . لا أحد يناديها سوى بديزي. يا الله ! إنها أكثر من رائعة."

ثم سكت فجأة وسأل : " هل تعرفها؟ "

فقلت مستكملاً صوتي اللاهي: " قليلاً. "

فأكمل بانفعال : " الأولاد والبنات يعشقونها . الأولاد برغبة والبنات بحسد . للأسف لم تدرس لي " .

تباعد صوته وهو يقول : "يقولون عنها صاحبة مزاج رائق وسر غامض . . . قد يكون ارتباطها بشخص مهاجر. "

إذن هذه هي ديزي. ديزي التي ستقول لي يوما أنها ما أحبت أبداً اسم يلدز وكم استسخفته لثقله.

-٨-

اختلفتْ طرقي في الذهاب والعودة من وإلى أي مكان.دائماً ما أمر أمام بيتها،مترجلاً أو راكباً سيارتي. بعد أقل من أربعة أيام، رأيتها تدخل بسيارتها الجراج. وفي بعض الأحيان كانت تتركها في الشارع إذا كانت في عجلة من أمرها، هكذا تخيلتُ. فكان يلذ لي أن أسير بجوار السيارة ببطء، وأنا أكاد ألامسها بأطراف أصابعي، وأتعلق بالأشياء الصغيرة التي تتركها في السيارة ....نوت محاضرات، مضرب تنس، مجلات عن الموضة ...كم مرة وجدت على زجاج سيارتها مخلفات ورقية لركنها في الممنوع. ربما بدأت متعة مراقبة أشياءها الصغيرة من هذه المرة. طريقة إلقائها باهمال سلس يزيد من جمال حرية الأشياء.

ثم....ثم تقابلنا وجهاً لوجه. ابتسمتْ فاقتربتُ محيياً. وبعد عدة أيام تكرر المشهد غير أنها قالت : " يبدو أننا جيران."

" نعم . أنا أسكن على البحر في نهاية هذا الشارع. " وأشرتُ إليه.

بسيطة وتتعامل بثقة فتشجعتُ وسألتها :

" هل أستطيع أن أتصل بك لأوصي على صديقي؟ "

" دون شك. "

ثم أشارت لي ضاحكة ودخلت الفيلا.

بعد يومين جاءني صوت على الهاتف، خمنت أنه صوت أمها أو أختها. ثم احتواني صوتها المرح : " ألو "

" آسف لاتصالي . الحقيقة أنني لا أريد أن أوصي على صديقي. أردت فقط أن أهنئك بالعام الجديد. "

" شكراً. ولو أنه بعد شهر. "

بالله عليك، قولي لي: لماذا هاتفتها؟ بعض البله أم كله؟

تعمدتُ أن القاها صدفة عدة مرات.ولكن الغريب حقاً أني أصبحت أراها فعلاً صدفة في أماكن كثيرة لم أكن أظن أني سأراها فيها. أكتشفتُ أني رأيت أختها الصغيرة من قبل عدة مرات في النادي. كنت أعرف أنها في فنون جميلة. كان كمال قد علق مرة على جمالها وقال أنه رآها من قبل في كلية الفنون حيث يحضر الدكتوراه. وعلقت أنا قائلا :

" تخيل على جمالها هذا أن تكون خنفاء. "

وما فاجأ كمال وفاجأني أنه عندما كلمها في الكلية وجدها ذات خنفة مميزة فعلا. ضحكنا كثيرا على هذا المقلب ولكني فوجئت أنها ـ رشا ـ وهذا هو اسمها ، أخت يلدز ..... ولكم كانت يلدز متعلقة بأختها بدرجة عجيبة

هذه المعرفة السطحية لريشا جعلتني أقترب أكثر من يلدز فألاحظ النبرة الحادة التي تظهر في بعض الأحيان في صوتها فتقترب من صوت أختها، إلا أن هذه النبرة تزيد من جمال اللدغة الخفيفة التي تميزها.

صدف كثيرة خادعة. نتبادل فيها أحاديث سريعة مقتضبة ولكنها تبني علاقة بحذر وقوة .

الصدف التي أهدانيها الله والصدف التي كنت أتفنن في صنعها. فأحتبس لو رأيت سيارتها في شارع جانبي حتى تتحرك هي فأظهر أنا وكأن العالم

كله لا يحتوي أحداً سوانا. كنت أأمل أن أجعلها تشعر أني جزء من الوقائع المهمة في حياتها ، وكأن طريقينا دائماً في التقاء.

تساليني لم أغرق نفسي في كل هذه الدوائر اللانهائية ولا أختصر طرقي لأصل. ربما تساعدني الكتابة على المعرفة.

تتعلق بالمدير وتسألني عنه. يجذبها شيء ما إليه. تردد في عيني كلمة " ورثة المرحوم" التي قرأتها في دفتر الأرقام.تقول أنها رأته مرة في نفس الشارع. فأجيبها بأنه جار لي أيضا.

ويقول هو لي أثناء حديث بطريقة عابرة أنه رأى " صديقتك هذه " ثم يكمل بابتسامة " يلدز ماجد ". أهز رأسي ولا أعلق.

اقترحت عليها أن نتمشى إلى موقع الشقة الجديدة،فالبناية لا تبعد كثيرا. اعتذرت و طلبت تأجيل هذا، ثم أضافت أنها تريد أن تستشيرني في الديكور. فقلت:

" إنه اختصاصي الأصلي. "

" قد نؤجل هذا أيضا. لقد اشترينا هذه الشقة لأن أمي تفكر في هدم الفيلا

وإقامة بناية بدلاً منها. "

فقاطعتها : " قد يمنعها القانون."

" أنت لم تر أمي بعد." ثم أضافت ضاحكة : " أنا أحب هذا الفيلا جداً. لكن يبدو أن الانتقال لا مفر منه."

فقلت وكأن شيئا آلمني في جملتها الأخيرة:

"على العموم،الشقة ليست ببعيدة عن هنا. "

نظرت إليّ ثم قالت بوجه يحمل معان مُحيرة:

"أنت تجعل الناس أصدقاءك بسهولة. "

فكرت. آه لو تعلمين مقدار صعوبة هذه السهولة.

ما الذي كنت أريده منها فعلا؟ للمرة الألف يتردد هذا السؤال إلى الآن.

أخي الطبيب قال لي ذات مرة. إنك إذا صادفت حالة طبية نادرة فتوقع أن تقابل أخرى مثلها قريباً.

هذا الاسم النادر انهال عليّ. مرات بقراءات في كتب غير متوقعة أو بمعرفة أن زوجة أحد الأصدقاء من يلدز وأنها زارتها من وقت قريب، وأشياء لا حد في غرابة مصادفتها. مرات ومرات حتى بت أعتقد أن الصدف التي اخترعها ترد إليّ بشكل مبهم.

من منا له القول أو الحكم عندما تلعب أفروديت أو هيرا ؟

سألتها ذات مرة من اللقاءات الخاطفة هذه عن اسمها هل هو اسم لإحدى جداتها . فقالت باستغراب:

" نعم. هو اسم أم جدي لأبي."

فقلتُ :

" جدك نفسه سمي على اسم السلطان. "

فقالت شاردة:

" أنت تعرف أشياء كثيرة."

ـ٩ـ

أنا طويل البال وسلحفائي الانتظار وكأني متأكد أن الأشعة على المرآة تنعكس، إلا أني لن أصدق أذنيّ وأنا أرفع سماعة الهاتف في العمل فأسمع صوتها ، تقول :

" لي صديقة تطلب منك خدمة. بعض مجلات الديكور. فهل تمانع؟ "

اتفقنا أن أنتظرها خارج مجمع الكليات في الأزاريطة حيث تحاضر في بعض الأحيان. أتت مرحبة وقالت : " ظننتك واحداً من الطلاب. "

" ها هي المجلات التي طلبتها. تفضلي."

" إلي أين أنت ذاهب الآن؟ "

" لا مكان."

" إذن؟ "

" هل نفطر في النادي؟ "

" لم لا. "

كنت قد أحضرت لها شوكولاته وما أن ركنت السيارة في النادي حتى التفت إليها قائلاً:

"جئتُ لك بهذه الشوكولاته. تفضلي."

تغير مزاجها فوراً وقالت وهي تنزل من السيارة:

"أنا أكره الشوكولاته. "

حرت ماذا أفعل وأحسست بالإحراج بسبب لهجتها وحدة الرد ولكني أمسكت الشوكولاته وأخذتها معي دون أن أزيد.

استعادت صفاءها سريعاً ونحن نتكلم في انتظار الليمون والكرواسون.
قالت متسائلة : " كم عمرك ؟ "
نفس السؤال المتردد دائماً فقلت ضاحكاً : " لم ؟ "
" تعطيك ملامحك أواخر العشرينات غير أنك ربما كنت في الأربعين ، أليس كذلك " ؟
"نعم. وأنت ؟ "
"خمس وعشرين "
خمسة عشر عاما تفصلني عن هذا الكائن الذي يجلس أمامي. تأكل الكرواسون بشهية فتية وتضحك، ربما بخبث الخمسة عشر عاماً الذي وضعته حاجزاً بيننا.
أمسكتُ بالشوكولاته وقلت لها لماذا؟ تناولتها مرحبة والتهمتها. هزت قدمي المنضدة فاهتزت قهوتي وضاع وجه الفنجان.
تكلمتُ عن نفسها واختيارها للإعلام وتدريسه " كان مجموعي يؤهلني لدخول الطب أو الهندسة. كله متشابه.ما كنت أريده فعلا هو تصميم الأزياء. أعشق الألوان على الأقمشة.لا أجد وقتا لهذا. يستغرق الماجستير مع التدريس كل وقتي. "
" ديزي ! "
" أنت أيضا عرفتَ الاسم."
" نعم. يقولون عنك أنك رائعة و عبقرية في عملك و ....."
" و ماذا أيضا؟ "
" و سر ما؟ "
" كل منا له سره الخاص. أليس كذلك ؟ "

ثم قالت: هل تمارس أية رياضة؟ أنا أحب التنس. ألعب كثيرا مع خالي. هو في عمرك تقريبا ."
" في بعض الأحيان ألعب تنس أيضاً .... قد نلعب معاً يوماً ما. "
"حالياً، كما قلت لك، وقتي بين الماجستير والتدريس."
"ربما يأتي يوم قريب للعب يا ديزي."
"شكراً على المجلات.لن تؤخرها صديقتي. هل معك رقم هاتفي المحمول؟ " " لا."
" ها هو. "
في هذا الحوار ، كانت بسيطة وقريبة جداً مني. لكن عندما أستعيده أجدها بعيدة غائمة في عالمها الذي لم يمنح لي إلا بالحيلة التي جعلتني أسقط من السراط المشدود تحتي.

-١٠-

عندما تعشقين تستشفين محبوبك. هذا اللقاء وكل الملامسات اللقائية العابرة التي سبقته والتي تلته غرس داخلي اليقين الذي يدركه العاشق عن الاحتمالات المستحيلة لقبوله ظلام نفق انزلق فيه. نفق يتشعب ويتفول بعدد خرافي من الإمكانات. قد يكون واحد فقط هو الحل وهو النور الذي طال انتظاره .... ببساطة هذا النور لا يسطع أبداً لأنه دائماً خيال داخل عقل العاشق المغبون.
عندما التفتُ حولي شُعب هذا النفق المتنامي، تركت كل شيء وأخذتُ أجازة وسافرتُ إلى أخي لأنجو.
ساعدتني ساعات السفر الطويلة وروعة البلد وتوترها المستتر على الخطو تجاه أخي الذي تعرفين كم أقدره.
تعمدت ألا أقص له شيئا ولكنه نظر إلي متسائلاً، ثم احترم صمتي طوال فترة مكوثي لديه. لكنه عندما ودعني في المطار، أعطاني علبة صغيرة وابتسم، وفي طائرة العودة فتحتها فوجدت بروشا من الألماس على شكل قناع أفريقي ـ قطعة من الجمال الأصيل ـ كنت قد رأيته مع أخي وتأملته كثيراً. ليس بفاحش الثمن،لكنه فنيّ للغاية.تصورتها في ليل سماؤه صافية تترصع بألقه وانفلتت مني ابتسامة ربما شجعت أخي على ابتياعه.

عندما رجعت لم استطع أن أقابلها صدفة كما كنت قد قررت. أعددت هذه الأيام تكمالاً لرحلتي التي حاولت فيها أن أستعيد كمالي و تمامي. غير أن كل هذا التماسك ذاب برؤيتها.
هلت أمامي فجأة قائلة: "لم أرك منذ فترة طويلة."
ثم أضافت: "ماذا حدث للصدف؟ "
"كنت مسافرا."
"كم أعشق السفر. إلي إين؟ "
"جنوب أفريقيا عند أخي الذي يعمل هناك."
"رائع !"
"ثانية واحدة."
أخرجتُ علبة البروش من جيبي. نعم كنتُ أحملها منذ أن عدت.
قدمتها لها قائلاً : "أرجو أن يعجبك."
قالت ضاحكة قبل أن تفتحها : "أحب الهدايا كثيراً."
"إذن فاسمحي لي."
"أهدني كما تشاء."
كانت قد فتحت العلبة وهي تتكلم وأخرجت البروش.
" لَكَمْ هو مبهر! إنه قناع السحرة. هل عزّمتَ عليه؟"
فقلتُ وأنا أُظهر لها سهوي المفترض: "للأسف فاتني هذا."
وضعت البروش في العلبة و قالت:
" أشكرك كثيراً. أشياؤك بديعة و غريبة.شريط الموسيقى الذي أعطيتنيه يُدخلني في عوالم بعيدة مبهمة. لكم استمتعتُ!"

ما الذي يجعلها فراشية الأحوال هكذا؟ ترفُ بأجنحتها في كل اتجاه. وما إن تقترب حتى تغير مسارها. طالما تردد شكلها الفراشيّ هذا في مجال رؤيتي، حتى بتُ أراها بأجنحة رفرافة رقيقة شفافة تعكس ألقاً ملوناً محيطاً رمادية ملابسها، فعندما رأيتها بفستان السهرة الأسود تطايرت نجيمات برقية بسناها الخاطف. سأقص لك هذه الليلة لأنها .....

-١١-

هل تتذكرين ياسمين أخت طارق الصديق الأعز لأخي؟ من المؤكد أنك رأيتنا نحن الثلاثة معاً عدة مرات. أخته الصغيرة " ياسمين " التي كانت تشبه الأرانب السمينة يفعت وامتشق جسدها في حفل زواجها.

اتصل بي طارق مذكراً إياي بليلة الفرح. قال : "لن أرسل لك دعوة . أنت أخوها. ستمر على البيت أولاً ثم نذهب جميعاً إلى النادي السوري."

لا يهم التفاصيل. تعرفين ماذا سأقول.

كنت أتمنى طبعاً أن أراها ـ يلدز ـ في الحفل. كان عندي بعض اليقين المهزوز أني سأقابلها هناك.وفعلاً قبل أن تمتلئ القاعة بالمدعوين لمحتها تقف عن المدخل في فستانها هذا الأسود الرائع، طويل لكنه عار موح. لم تتزين إلا بقلادة وخاتم من الماس. ترددتُ ثواني عند الدخول. ساعداها مفرودان ويداها معا ممسكتان بحقيبتها الفضية الصغيرة التي تكاد لا تبين.

ابتسمتُ مقترباً كأني على ميعاد، مرحباً.لأول مرة أراها بكل هذا الخجل. تهلل محياها وقالت وهي تسلم عليّ :

"من الرائع أنك هنا."

ثم أكملت:

" لا أرى أحداً أعرفه. أنا صديقة حسين العريس. أعرفه من نادي اليخت."

رافقتها حتى منضدتي بعد أن حيت العروسين وأجلستها بجواري. كنتُ أفكر أن هذا الحفل هدية من السماء.تبادلت النظر مع ياسمين. فرحة

متبادلة. تجلس ديزي جواري ونتبادل كلمات وحوارات طويلة لا تنقطع مثل لقاءاتنا السابقة. قليلاً قليلاً، بدأت روحها تستعيد جيشانها وتتوارى غلالة الخجل الزائد مع ذوبان أجنحتها.

قلت اقتراباً : "ما أعجب الإنسان وقلبه!"

"لم؟"

"تبادل العلاقات.شبكة رقيقة جداً من المشاعر."

التقطتْ حبة فستق وهي تنظر إليّ منتظرة أن أكمل فقلتُ:

"مثلاً، لست أدري ما الذي يجذبني إليك هكذا. شيء ما يجعلني أحبك. "

نعم ، قلتُ أحبك. بأي نبرة تتساءلين؟ وقد تكون هي أيضا تساءلت لجظتئذ. قلتها بحياد تام ، نبرة بعيدة عن الإيحاء. كأنها تشمل كل أنواع الحب القابل للتواجد.

أكملتُ دون أن أتوقف :

"فكرت كثيراً كم نحن مختلفان. لا تجمعنا ربما إلا الصدف."

فقالت ضاحكة :

"نعم. يا لعدد الصدف التي تجمعنا. "

"هذا الاختلاف لا يوحي بأية صداقة قد تدوم."

تعمدتُ هذه المرة أن أقول صداقة، لأن هذا الموضوع كان يؤرقني فعلاً. ففي موضوعات مثل الحب والصداقة يكون الاستمرار قائماً على أراض متشابهة نقف عليها وإلا أصابها الفتور والملل. ما أحسبه غريباً فعلاً هو هذا الانجذاب تجاهها. لا تفكري في المتع الجسدية لأني سأقص لك عنها كل شيء فيما بعد. عليك بالصبر إذا كنت مازلت تقرأين. ثم أكملت كلامي لها:

"الانجذاب العجيب لا ينتهي أو يهدأ."

فقالت وكأنها تحكي قصة لا تهمها :

"أنا معتادة على هذا منذ صغري. كانت مدرسة الموسيقى تجلسني جوارها وهي تعزف رغم أنني لم أملك حساً موسيقياً عالياً مثل الأخرين، وعندما ذهبت أنا وصديقاتي لإكمال أوراق البطاقة الشخصية، اختارتني الموظفة لتبدأ بورقي، ومثلها عندما كنت أقف في طابور تجديد رخصة سيارتي في المرة السابقة، ناداني الضابط وأدخلني عنده وأنهى لي أوراقي بعد أن شربت كوب الليمون الذي طلبه لي فشكرته و مضيت. كانت هذه الأشياء تحرجني في أول الأمر ولكني لم أر أحدا يعترض."

هل كانت تتهرب من كلامي؟ هل تُنبئني باعتيادية علاقتي بها؟ لم يكن في صوتها أي نبرة تعال أو غرور،وهذا ما أربكني. كانت كأنها تقرر واقعاً عادياً متكرراً. لو استشعرتُ كبراً أو غروراً لأسعدني هذا، لكون هذه المشاعر بشرية جداً ووجودها هو الذي يكون عادياً ومتكرراً. أما هذا التباعد الكليل الثالم هو ما حيرني، إلا أنه لم يطل سعادتي بقربها وتناغم لثغتها المحببة. وحسبي منها هذا النديف. البَرَد.

ازدحم الحفل، وبدأ معارف لها في الظهور. استأذنت مني باسمة وجلست معهم. كان انضمامها لهم متناسقا للكل. جلستُ بجوار طارق أراقبها من بعيد. وعندما ضج الفرح بالرقص و السرور، جذبتني ياسمين لكي أرقص معها. تواجهنا ـ ديزي وأنا ـ للحظات قبل أن نتباعد مرة أخرى وسط الراقصين المنطلقين مع الموسيقى. لمحت في عينها نظرة سخرية ، جعلتني رغم خفتي واستمتاعي بالموسيقى أحس أنني ثقيل الروح والحركة.

لم أنسحب، أكملت رقصي مع ياسمين ثم أسلمتها لعريسها قائلا لها:
" أنتما محظوظان فحافظا على حظكما هذا. "
وانفردتُ بعد ذلك أتثاقل وأتثاقل كلما خف الفرح وطاب.

-١٢-

اتصلت بي وقالت المجلات معي ، كيف أحضرها إليك ؟
تشجعتُ وقلت : "هل لك أن تشرفيني وتحكمي على ذوقي في الديكور. فنجان شاي ؟ ما رأيك؟ "
"لا مانع عندي. ما الموعد الذي يناسبك؟"
"ما رأيك في الآن؟"
كان خريفاً وعصراً.
"عشر دقائق ، وأكون عندك."
حمدت الله أن الخادمة قد نظفت البيت ورتبته قبل نزولها. وعندما سألتها: "ماذا تودين أن تشربي؟ "
"هل لديك كاكاو؟"
"نعم."
ما يُضحك فعلاً أنني لا أشرب الكاكاو لأني أكره اللبن. حرت كيف أصنعه.
رجعت و سألتها: " كم ملعقة سكر وكم لبن؟"
المهم أن الكاكاو في النهاية كان كارثة. تحول المطبخ لدي إلى خليط من رذاذ متناثر من الكاكاو واللبن والسكر. كلما كنت آخذ ملعقة من أي منها اصطدم بالكوب الزجاجي فتتناثر حوله وحولي.
لكنها تقبلتها بصدر رحب.....تركت نصف الكوب تقريبا. ظلت عيني معلقة عليه سواء في يدها أو موضوعا على المنضدة أمامها. حاولت أن

أركز و أجيب أسئلتها عن الديكور و البيت. أعجبها المنظر من الشباك العريض. أشارت إلى بيت على حافة التواء الكورنيش و قالت أنه بيت جدتها.
معلومة جديدة !
من شرفتي أستطيع أن أرى البيت بوضوح. لم أسألها في أي دور تسكن جدتها. لكن هذا المنزل انضم لمحطات الرؤيا التي كنت أتمنى أن أراها دائما فيها.
وفعلا عرفت أنها تذهب كل يوم جمعة ظهرا إلى جدتها للغداء معها.في بعض الأحيان مع رشا ووالدتهما، وفي أحيان أخرى يتقابلن هناك.
وفي مرة تجرأت عندما شاهدتها ذاهبة إليها، وقبل أن تدخل البيت حادثتها على هاتفها المحمول.توقفتْ وردت فقلت لها أني أراها. فرفعتْ رأسها ثم قالت: "نعم هذا أنت أراك جيدا. الدور الخامس. سلام. "

-١٣-

بيتها. شارعها. بيت جدتها. سيارتها. خصوصاً سيارتها وتعلقي بها. تساءلتُ هل هذه فتشية؟
وقوف سيارتها خارج بيتها أو بروز طرف منها من الجراج،كان يطمئنني يغمرني بهدوء كوني ليقيني أنها في بيتها، في ركن ما منه تجلس أو تنام. مجرد تواجدها في مكان له حدود ـ حتى ولو كانت تلك الحدود تواريها عني وتحجبها ـ كان دليل للسكينة لدي.
وأنا أكتب لك الآن أعيد الوقوف أمام نفسي. هل سفر أمي و أبى وأخي هو الذي هيأ لي التمسك بإحساس الفقد، فكلما مررت على بيتها ولا ألمح سيارتها أشعر أنها تاهت وقطع حبل ارتباطي بها ؟
ربض الإحساس بالقطع في التواءات الشوارع الداخلية لستانلي، مثل الكورنيش،كلما تجاوزت انحناءً تغير المنظر، وإذا لم تري ما تتوقعينه أو تتمنينه، ينتابك القلق والرجاء أن تقابليه في الانحناء القادم وهكذا. فكانت سيارتها و طريقة ركنتها توقف تراكم هذا الاحساس وتغوّله.
كثيرا ما تخيلت موتي وكأنها ستحزن عليّ ولكن هذا التصور نفسه يُقلب في ساعته وأتخيل موتها وحالي أنا بعدها. أحاول أن أبعد هذا التصور الذي يتشبث بمخيلتي فيهيجها ويُؤلمها لحد الجنون.
لكن هذا الألم المرفوض كان له متعة خفية في مكان سحيق في الروح وكأنه يمنح الانعتاق التام، متعة تقترب من لذة العشق المُغني ذاته.

ومثلما كانت سيارتها الساكنة تمنح الراحة والطمأنينة، كانت فترات الوقوف الطويلة وعدم تحرك سيارتها لأيام ، تنغز بالقلق والتساؤل. فتعود الحركة هي الأمل المراد. فعندما أطل من باب الجراج المفتوح وألاحظ الاختلافات الطفيفة في الركنات المتوالية يُرجعني الشعور لأمان عالمي المنتظر.

في تلك الأيام لاحظت جيهان زوجة كمال أني أتباعد وأنغلق على نفسي . نبهت كمال لذلك وواجهاني بهذا . سخرتُ منها ، غير أن فكرة فقدها أو بالأصح موتها المفترض ظلت تحوم . لم؟

كثيرا ما جبت شوارع الإسكندرية ليلاً دورات لا تنتهي. أبدأ من باب جراجها الخاوي باحثاً عن سيارتها. ألف وأدور حتى أصاب بالغثيان وأتساءل ما الذي يرجعها في أوقات متأخرة هكذا. ولا أعود حتى أرى سيارتها في مكانها المعهود أو باب الجراج مغلقاً.

في أحلامي يظل باب الجراج يعاود بلا نهاية. يبدأ الحلم دائما بي وأنا راجلا في شوارع ملتوية طويلة يتناوب فيها الصعود والهبوط وأشجار الجهنمية تطل بصمت موحش، تراقب مسيري حتى أصل إلى باب نصف مفتوح لايُظهر ما وراءه تماماً. أكمل سيري وأرنو إليه بطرف عيني دون أن ألتفت صراحة وفي الحلم دائماً ما أكون مترقباً متوتراً لما سوف أراه وراء هذا الباب .... وفي اللحظة التي تكاد تبين الأشياء في العتمة داخله ، يرفُّ طائر في الجهة الأخرى فأنظر إليه وألمحه يتباعد مرفرفاً، وعندما أعاود النظر تكون فرجة الباب قد اختفت أصلاً.

عندما غيرت سيارتها فُجئتُ بأشخاص آخرين يحتلونها ثم لمحتها هي في سيارة جديدة ...بي.أم. دبليو سبور سوداء كالعادة. ظللت لفترة طويلة متعلقاً بالسيارة القديمة أراقبها من بعيد وأتابع سيرها. لم أنفر من

السيارة الجديدة ولكني تعودت عليها بعد فترة ممتدة. كنت أحب السيارة القديمة لأنها نفس ماركة سيارتي وشعرت أن هذه خطوة للبعد.

أنا أكره الأشياء باهظة الثمن، ولكن هذه كانت سيارتها هي التي أسعدتها دون شك .

أشياء كثيرة أتعلق بها كوليد غر. أقر هذا الآن وأفكر هل يعتريني أي خجل بسبب هذا التعلق ؟

تقولين إنها فتشية كما قلت أنا من قبل؟ قرأت عنها لأتفهّم.

التعلق بأشياء لها قوة سحرية أو غامضة على الأخرين. وضع علم النفس لها شكلاً جنسياً. عرفت أن الأصل كلمة برتغالية تدل على الآلهة في أفريقيا.

تسألينني إذا لم تكن فتشية فماذا إذن؟ فكري أنت، أنا لا يهمني الآن أن أعرف. يكفيني فقط الاستعادة الحرة للحوادث.

لم يكن لها أي طابع جنسي ، على الأقل في هذه المرحلة من الرحلة التي أوصلتني إلى هنا . سيأتي أمر هذا فيما بعد . أما في هذا الوقت لم يكن للبدن دخل سوى التمتع بالوجود وامكانياته، أو بالأصح الاختلافات التي تحدث حولي نتيجة للخفة والثقل الذي يتحرك به هذا الجسد. جسدها .

جسدها ـ الذي راوغني عندما حاولت أن أتخيله في حضني أيضاً بلا حافز جنسي واضح.

-١٤-

مستلقية في الشمس أمام حمام السباحة بالنادي ، تمسك أوراقاً بكسل وشبه لامبالاة.

كنت أمر بالنادي وأنا عائد من العمل مثل كل أربعاء. أتناول غذائي ثم قهوتي في هدوء هذا اليوم الذي يكون النادي فيه دائما غير مزدحم . لمحتُ وأنا في طريقي إلي الخارج سيارتها الجديدة بجوار حمام السباحة. تأكدتُ أنها موجودة به لأني لاحظت أنها تحب دائما إيقاف السيارة أقرب ما يكون للمكان الذي تقصده. كسل ...ربما،تعالٍ ...ربما. لذلك كنت دائماً أجد مخالفات كثيرة ملصقة على زجاج النافذة الجانبية لسيارتها.

ركنت سيارتي مرة أخرى وصعدتُ السلالم ببطء علني أراها فأفكر ماذا سأفعل بعدئذ،لكني لم ألمحها وعندما استدرت عائداً وجدتها بلباس البحر مستلقية تمسك بأهمال بأوراق كثيرة.

رفعتْ رأسها و أشارت إليّ. اقتربتُ وسلمتُ عليها ثم قلتُ:

"أتستمتعين بالشمس أم تقرأين ؟"

فقالت وملامحها توحي بالملل: "أوراق الماجستير. النادي هادئ في هذا الوقت. أحب الشمس وأريد أن أنتهي من الماجستير."

ثم هزت مجموعة الأوراق التي تمسك وأكملتْ: "هذا الورق!"

وبهذه الحركة انزاحت حمالة لباس البحر اليمنى قليلاً من مكانها فأبانت لون بشرتها الحقيقي الفاتح .

سأصف لك ما رأيتُ بعد هذا ....رأيت يدي ترتفع ببطء خلال كلماتها، ترتفع حتى تصل لمستوى كتفها وكأنها تطفو إلى سطح سائل لامرئي، وأصابعي تمتد وتقترب وتلمس هذه المساحة الفاتحة بجوار الحمالة عجباً وذهولاً لمسة لحظية خفيفة تكاد لا تحس وطرف الحمالة يلامسني أيضا ، ثم تنسحب يدي غير متباعدة منها وأنا أقول باستغراب يغمرني :

"هذا هو لون بشرتك الأصلي إذن!"

ثم سحبتُ يدي سريعاً.

" لمستِ سمراء!"

رغم أنني لا أتذكر سوى لون الحمالة والميل البسيط الذي أتاح لي تلك البشرة المُوَرّاة إلاأنني أستطيع الآن أن أصف لك المشهد كله وكأني أراه من بعد. أرى ظهري يداري معظم جسدها وأرى أوراقها بجواري ترتعش في يدها. أستطيع أن أصف لك زرقة ماء حمام السباحة وخضار الأشجار حولنا،حتى بلاط الأرض ولون الشماسي . أخلق المنظر من جديد. أنوار الشمس و انعكاسات الأيا. أرى كل شيء إلاها!

كما قلتُ لك، لو سألتني عن تفاصيل جسدها ما أخبرتك.لم أكن أعرف بعد حنّو شواطئها ولا لجة يمها.

يدي ترحل عن برها وألمح ضيقاً مستتراً في عينيها وأراها تميل قليلاً بكتفها كأنها ترجع الحمالة لمكانها الصحيح فتعود المشاهد المتوقفة إلى تتابعها.

هل أخجلها هذا التصرف مني؟ هذه اللمسة اللحظية غير المتحكم فيها. هذا التصرف ما زال يدهشني حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها لك. لكن ما برحتُ فرحاً به.

ولكني رجعت إلى البيت يقلقني شيئ ما. احساس ما لا يرضيني وكأني أضعتُ فرصة مؤكدة. لأي شيء لا أدري.

كما قلت لها في حفل زفاف ياسمين. ما الذي أريده؟ معرفة كل شيء عنها.

الآن، لو عددتُ ما أردت معرفته لغرقنا ـ أنت وأنا ـ في تفاصيل لانهائية مُتكثرة. أعيد وأكرر .....أن الكتابة عنها تعيد إليّ تفاصيل حياتها كلها هذه اللحظة. كنت أريد أن أعرف مثلاً :

أول قبلة؟ إحساسها بدخول أول يوم في المدرسة؟ هل ترتعش يدها في لحظة الخوف أو النشوة؟ متى أحست بأعراض أول دورة ؟ طريقة امساكها لضرب التنس ؟ آخر زر تدخله في عروته في منامتها قبل النوم ؟ طريقة لبس خفها البيتي في أول استيقاظها؟ هل تخاف الصراصير؟ هل تشمئز منها ؟ لماذا رفضت الشوكولاته؟ أي لون تحبه؟ هل تكره أمها ؟ ما اسم عمتها؟ كيف تتعطى قطتها إذا كان عندها قطة ؟ أكثر حرف تحبه في اللغة الإنجليزية؟ هل تتعدى ١٢٠ كم / ساعة عندما تسافر؟ هل عاكست أحداً بالهاتف من قبل؟ لماذا الدور السابع؟ لماذا التحقت بالمعادلة الأمريكية بدلاً من الثانوية العامة ؟ هل هي مع الدكتاتور العادل أو مع ديمقراطية الغوغاء؟ تؤمن بالله ؟ تحب الرسول ؟ أهل البيت ؟ تأكل الفشار ؟ تكذب؟ أكبر كذبة ؟ أعتى كره؟ التلفزيون؟ هل جُرحت بشوك وردة من قبل؟ هل تنام و النور مضاء؟ نجيب محفوظ وسيد الرحيمي؟

ألف ألف من الأسئلة. بعضها عرفت إجابتها والباقي مازال يدور ويرتع في رأسي بلا أمل للوصول أبداً .

تلفت اللمبة النيون. النور يتقطع بدرجات سريعة متلاحقة مثل تلك الأسئلة الحيرى. أرى ما أكتب ...تتابع من الأنوار الخاطفة بومضاتها البرقية. الظلام يقف أمام آلاف التفاصيل .

لا الظلام يغلب، ولا التفاصيل تُلم !

-١٥-

وهكذا ...دوامات من التلاقي الخاطف العقيم. دقائق غير قادرة على الانضمام أو الحميمية.

سنة كاملة ...حتى حان عيد ميلادها.

اضحكي مرة أخرى .....أخفيتُ عنك أنها أكتوبرية أيضا. ألم أقل لك! كانت قد قالت لي من قبل: " اهدني كما تشاء." في بعض الأحيان كنت أترك لها أشياء بسيطة مع البواب أو على سيارتها إذا كان باب الجراج مفتوحا؛ وردة ....بيت شعر ...

لكن عندما أهديتها دبة صغيرة باسمة قبل يوم ميلادها باسابيع، فاجأتني وهي تفض ورق الهدية ثم وهي تتأملها بقولها بسخرية حادة وهي تضحك مغتاظة : "ما هذا؟"

"إنها لسيارتك . ألا تحبين وضع اللعب الصغيرة فيها ؟ "

"بلى. أحب. ولكن ..."

انسحبتُ سريعا. اختفيتُ تماماً .غيرتُ كل اتجاهاتي.

ربما تتساءلين لماذا تتقبل امرأة هدايا من شخص تتباعد عنه. ماذا تريد؟ أرد عليك: لا شبهة في هذا . كانت كل هداياي لها بسيطة ، حتى البروش لم يكن غالي الثمن ، البروش الذي أتيت به من جنوب أفريقيا . مجرد تذكار . هي تعرف وتفهم .

البروش ! سأقص لك ما حدث له فيما بعد.

ابتعدتُ فترة طالت. تقابلنا مرتين فقط في تقاطعات الشوارع. كانت تهدئ من سرعة سيارتها وتفتح النافذة وتقول لي:

"كلمني ، اتصل بي . لماذا لم أعد أراك مثل الشهور الماضية ؟ "

كنت أبتسم وأكمل سيري ، لكن عندما لم أتصل بها ، وجدتها تحت بيتي تقول لي : " أرجوك . اتصل بي . أريدك في شيء هام . "

ثم أكملت : "ابنة خالتي تبحث عن مهندس ديكور ورشحتك لها. نمرة هاتفك ضاعت مني."

أعطيته لها مرة أخرى.

فقالت: "ستتصل بك . أنا أعرف ذوقك الرائع . "

صممتُ على عدم الاتصال ، حتى ولو هاتفتني قريبتها.

طبعا لم تتصل هذه. هل كانت حجة؟لماذا؟

دخول جديد في الدوامات !

-١٦-

في جولات ليالي الأرق اللانهائية التي أخترق فيها إسكندريتي الهاجعة من كل اتجاه ، يتلوى صوت سميرة سعيد بغنج و ألم:

آه لو كنت ملكي
آه لو كنت ليا
كنت ح تمشي تحكي
للي تقابله عليا
كنت ح لم جناحك
كنت حكمت رياحك
كنت ح تشكي وتبكي
من قسوة لياليا
كنت ح تسهر ليلك ،ونهارك مشتاق
كنت ح تبقى حكاية برويها العشاق
وأما حناني ح يرضى عليك
و أما عنيك ح تدوب في هوايا
تحلف عمرك ما اتحبيت
ولا حبيت غير وأنت معايا

آه لو كنت ملكك ! (مرة أخرى أخطئ وأكتب ملكك و ليس ملكي) أي حبيب يغري حبيبه بتلك الكلمات! سأتملكك وسألم جناحك وأحكم رياحك. أذيقك قسوة الليالي وستلتاع شكوى وسهراً واشتياقاً. سأجعل

منك حكاية تلوكها الألسن.

ما تعني سوى أنها تغني لأمل مستحيل ولحلم لن يُطال إطلاقاً. عندما نحاول أن نثبت جبروتنا على ما لا نملك،على ما نموت رغبة دونه ولايفضحنا إلا تلك الآهه التي تعود مطولة مخترقة الروح البؤوس من الوصال.

(أيها الداخلون اطرحوا عنكم أي أمل في الخروج.)

كتب على باب الجحيم. عذاب استحالة التلاقي.

يقول ابن عربي أن أول راحة لأهل جهنم هو يأسهم من رحمة الله إذا غُلّقت الأبواب.

أما الأمل فهو العذاب الحق. الأمل الذي يكمل الأغنية ـ الأمل الخدّاع.

لو أرضى عليك يا حبيبي و يغلبك حبي ، نمتزج في هوى عزيز ونادر . قسماً بحب متبادل .....

واهمة يا سميرة !

آه لو كنت ملكي !

-١٧-

ملالي دورات التلاقي والبعاد الدامية يُسئمني الترجل وركوب السيارة ويُسلمني للصوت الرتيب لترام الرمل الذي أحب ركوبه في غير أوقات اكتظاظه.

مستنداً على الباب المغلق لعربة الترام ، أفكر في ديزي وسرها ومشاعري تجاهها ، التباعد المفروض دائماً بيننا. أكتب لك الآن وأقول لم تحبني.

طبيعي! فهل من اللازم أن يحبك من تحب؟ أنا لم أقل لك أنها صارحتني بهذا. لكن دعينا لا نستبق التتابع. يكفيك ما دار بيننا في حفل زفاف ياسمين.

مكان ما في جسدي كان يسحبني من عالم ديزي الذي يرتع في الفضاءات اللانهائية لروحي. تلامسٌ اهتزازيٌ لبقعة على ساعدي الأيسر تتناسب مع حركة الترام الترددية. كنت أقبض على القضيب المعدني، يلامسني ساعد بشري دافئ. كانت تقف بجواري ـ ماذا أقول؟ طفلة... صبية ـ شقراء جميلة تقبض هي الأخرى على القضيب. نتلامس بخفة تلامساً لحظياً. لم أحرك ساعدي. لم تلتفت إليّ ولكن كنت متأكدا أنها تشعر هذه اللمسات الطارئة ولا تستنكرها. كان مقصدي محطة الرمل للتسكع على كورنيش الميناء الشرقية ولكن عندما نزلتُ في محطة الإبراهيمية،ثم وقفت تنتظر مرور الترام، كانت تنظر إليّ بلا شك. عينان زرقاوان بريئتان بمكر طفوليّ متطلع. بدأ الترام في التحرك وهي ما زالت ترنو إليّ حتى أغلقت الأبواب . تساءلتُ لماذا لم أنزل

وراءها ؟ لم ؟ ماذا دار في تلك الثواني التي بدأ فيها الترام في التحرك بأبوابه المغلقة ؟

لا تفكري في مشاغبات لوليتاوية.

ولكن أتدرين ماذا حدث؟

توقف الترام فجأة لأن إشارة المرور احمرت وفُتحت الأبواب مرة أخرى.

تمهلت ثوانٍ ثم نزلت مسرعاً وجدتها قد بعدت وعبرت خطي الترام وتكاد تتوه في زحام شارع لاجيتيه. سرتُ وراءها،لا أدري ماذا أنا بفاعل.

أقول لنفسي: جمالها البرئ يجذبني. شعرها الذهبي المنهدل، رموشها الطويلة البنية التي تكحل زرقة عينيها.

سرتُ أسخر من نفسي و أعاتبها. كانت تتباطأ أمام واجهات المحلات الزجاجية حتى دخلت المجمع التجاري الكبير. كانت تلمحني دون شك وتعرف أني أتابعها. عدة دورات وأنا لا أدري ماذا سأفعل حتى اقتربتُ وسألتها : " هل هذا المحل جديد ؟ "

" لا أظن."

ثم صمتت ولكنها لم تتحرك. تشجعت قائلاً : "أراك تبحثين عن شيء."

"سأشتري هدية لإحدى صديقاتي."

فقلت متغافلاً: "هل توجد محلات أخرى للهدايا في الدور العلوي؟"

" لا. كلها محال طعام . "

ثم صمتنا وظللنا في أماكننا . كلانا خجل ينظر إلى واجهة المحل أمامه ولايرى .

بعد فترة قلتُ : "في أي سنة دراسية ؟ "

" ثانية ثانوي ."

" أي مدرسة ؟ "

" وما أهمية هذا ؟ "

" ما رأيك أن نتمشى قليلاً معاً ؟ "

تحركت ببطء وهي تقول : "لا مانع. لكني لا أريد أن أتأخر."

"إذن أصحبك إلى محطة الترام."

تكلمنا كلمات قليلة. لا تريد أن تفصح عن أي شيء خاص ، حتى اسمها لم أنله. وعلى محطة الترام المعاكسة ، وقفنا ننتظر مجيء الترام .

"هل نتقابل مرة أخرى؟"

لم تحول نظرها عن شريط الترام ولكنها قالت :

"امتحانات آخر العام الأسبوع المقبل. نتقابل الأسبوع الذي يليه."

تواعدنا على اللقاء محددين الميعاد والمكان. وعندما مررت بالسيارة في الميعاد، ركبت معي بوجل وهي تقول مندهشة : " تملك سيارة ؟ ! "

تقابلنا عدة مرات . تنزهنا كثيرا بالسيارة ، نتأمل المعمار الرائع لبيوت الأنفوشي وحي بحري .

لم تمنحني سوى قبلات خجول وتتهرب مني إذا احتضنتها. كنت أفكر أنها قاصر وأنها لم تكمل السادسة عشر بعد، وأنني سافل شرير. لكني احترمت خجلها وطفولتها بعدئذ ـ تلك الطفولة التي تحاول أن تعرف خلف عينيها البحريتين. ورغم أننا جلسنا كثيراً معا في شقتي فإنني لم أتجاوز حدي هذا أبداً عندئذ .

تكلمنا كثيراً وظللنا نتقابل حتى انتهت من الثانوية العامة والتحقت بكلية الآداب.

وثقت في بعد مدة طالت وأعطتني رقم هاتفها المحمول الجديد. اكتشفتُ تفاصيل كثيرة عنها وكلها لا تخرج عن إطار رقة روحها.

وتابعتُ النضوج الهادئ الذي يعتريها ونمو هواية التصوير الزيتي فيها بتشجيعي لها لزيارة المعارض والمتاحف المختلفة.

كنا نتهاتف ونتقابل على فترات تتباعد ولكن لم تنقطع علاقتنا إلاعندما تركتُ شقتي وانتقلتُ إلى الشقة الجديدة.

كان اسمها " عائشة ".

-١٨-

بعد معرفتي لشوشو ـ هكذا كنت أنادي عائشة ـ بثلاثة أشهر، رأيتُ نهى ....جريئة صريحة.

كنت أركن سيارتي تحت البيت . لمحتها ... رشيقة ، دقيقة القد ، شعرها أسود أجعد قصير . تلاقت نظراتنا . ابتسمتُ فابتسمتْ .

قلتُ : "يا له من جو رائع اليوم ! "

"إنه رائع فعلاً . "

"ما رأيك في نزهة على الكورنيش بالسيارة إلى المنتزة؟"

قالت : " هيا بنا. ما المانع ؟ أعشق المنتزه . "

كانت الشمس ممتعة حقاً ، والكورنيش خاو لكونه عصر يوم جمعة ، جو دافئ هادئ يوحي بالحميمية . تكلمت نهى بثقة وجرأة عن حبها للسباحة والسفر .

عندما عدنا قالت قبل أن تنزل من السيارة : " أنت تسكن هنا ؟ "

"نعم."

"وحدك؟"

"نعم."

"إذن نتقابل مساء الساعة السابعة."

وما أن احتوانا البيت وحدنا حتى خلعت عني قميصي ثم فكت أزرار فستانها الأزرق الطويل. وفي لحظات كانت ترقد بجواري وتقص لي عن

والدها الذي يعمل بالخليج وعن مسابقات الجمباز التي تدخلها وكرهها لكلية الهندسة التي تدرس بها منذ سنتين. وكم مرة فكرت أن تغيرها لولا اعتراض أمها على هذا والمستقبل الذي يعده أبوها لها عند رجوعه.

كانت تريد أن تدرس في كلية نظرية. تحب الحفظ والتاريخ وتكره المعادلات والرياضيات.

أكملتْ : " أكره هذا كله. سأسافر. سأبتعد عن هذا البلد. أنا أعتمد على نفسي كثيراً . سافرت ألمانيا العام الماضي وعملتُ في مصنع للسيارات كما أراد أبي ولكني سأسافر فرنسا العام المقبل في الصيف."

عرفتُ كل هذا خلال شبق عارم فوار .

تعددت لقاءاتنا وأنا أعجب أيضاً من نفسي التي أصبحت عنود بريئة.

ورغم جرأتها وجيشانها فإن أجمل لحظة قضيتها معها كانت عندما نامت بعمق على ذراعي. لم أتحرك رغم موضع ذراعي المتعب، وعندما أفاقت تساءلتْ مندهشة:

" هل نمتُ ؟ ماذا فعلت بي ؟ لا أتصور أن أنام هكذا. كم لبثتُ؟"

قلتُ: "ساعة تقريباً."

قبلتني قائلة : " لم يحدث لي هذا من قبل . لم أنم في حضن أحد حتى أغيب في نوم هادئ ، حتى مع أمي . "

"لعلها الموسيقى التي نستمع إليها." "معك حق. تلك النغمات توحي بطريق لا نهائي، متكرر المشاهد إلى الأبد."

"وأظن أنك متعبة من تمرين الجمباز اليوم."

ضحكت وهي تفرد عودها الدقيق : " والسباحة أيضاً . "

ثم أكملت : "يا إلهي . كم كان هذا النوم ممتعاً ! "

وسافرت فعلاً إلى فرنسا في الأجازة الصيفية. انتظرت عودتها مع بداية العام الدراسي الجديد ولكنها تأخرت حتى يئستُ من رجوعها . كنت أمر أمام بيتها الذي أوصلتها إليه عدة مرات وكنت أسألها : ماذا ستقولين لأمك لو رأتك معي الآن ؟

"صديقي .....ألست فعلاً بصديق ..ما المانع ؟"

لكنهاعادت. لمحتها بجوار كليه الهندسة. اتصلت بها فقالت:

"كيف عرفت أني عدت؟ لقد رجعت أمس الأول فقط . سأترك الكلية. لقد عملت موديلاً في فرنسا.

جاءت وأحضرت معها مجلة أزياء فرنسية ، وأشارت بفخر إلى صورتها:

"فتاة غلاف رائعة . أليس كذلك ؟ "

وللحق كانت جذابة فعلاً بملامحها السمراء وشعرها الأسود الأجعد وقدها الدقيق الممشوق.

" ما رأي أهلك ؟ "

"بما أني لم أستطع تغيير القسم والكلية فلن يهمني شيئ.ولا مانع لديهم. أبي هنا في الإسكندرية الآن. رجع نهائياً. ربما يكون محبطاً من انهيار مشروعاته لي. لقد أجبروني من قبل على هذه الكلية السخيفة وهذه هي النتيجة. لقد رسبت فلم أود أن أرجع ثم قررت أن أحاول تغيير القسم فوجدت عنتاً و غباء. ها أنا سأترك الكلية والمدينة والبلد كلها. وربما إلى غير رجعة ولكني سأراك مرة أخرى قبل السفر."

فقلت بجدية : "طبعا."

و .....اختفت. لم تقل لي هذا هاتفي أو عنواني في فرنسا.

ولم أعد أتذكرها سوى لحظات وهي نائمة على ذراعي في حلم سعيد.

-١٩-

أما معرفتي بيسرا فكانت في الوقت نفسه تقريباً. كنت أحضر معرضاً عن فنون الديكور الحديثة في القاهرة، مكلفاً من شركتي ونائباً عن مديري.

تعرفين أنني لا أحب القاهرة بترابها وزحامها المُلبد اللزج، غير أن المعرض كان حدثاً بحق، أجمل ما فيه كانت المحضرات المتتابعة التي ألقاها بعض من أشهر مهندسي المعمار والديكور في العالم.

في محاضرة عن تاريخ المعماري "بيّ Pei " جلست بجواري فتاة لم تثر أي اهتمام في مبدء الأمر، ملابسها توحي برقة حالها، قماش شعبي رخيص متناسق الألوان ولكن حذاءها هو ما حيرني ....غال وأنيق ولا يتناسب بأي حال مع بقية هيئتها.

كنت أفكر في فلسفة " بيّ " ..... على المبنى أن يعكس ما حوله. أرقتني هذه الجملة وشتتني عدم توافق الحذاء مع ملابس الفتاة.

انتهت المحاضرة وأعلن عن الاستراحة وأنا شارد الذهن. تحرك الرجل الذي على يميني قبل أن أستطيع أن أسأله عن مقدار فترة الاستراحة لأني كنت فقدت مرشد المحاضرات، فالتفتُ إليها وسألتها :

" كم من الوقت مسموحاً به للاستراحة،من فضلك؟"

فقالت بضحكة مرحة: " أنا لا أعرف الإنجليزية.أنا آسفة فلم أتابع ما قيل. "

أثارت دهشتي، نظرت إلى حذائها مرة أخرى دون قصد.

فأكملت ضحكها ثم أضافت : "ستسألني لماذا أحضر إذن ."

"لا طبعاً.أنا آسف."

" لا . هذا أمر بسيط ، من الممكن حدوثه . . . . حضور مؤتمر لاناقة لي فيه ولاجمل . "

ازداد فضولي فقلت مبتسما رداً على ضحكها: "إذن هيا بنا نستغل الاستراحة ونحتسي الشاي معاً وربما تحكين لي سبب حضورك."

"هيا بنا."

وفي المقاعد الوثيرة في البهو لم يزد الأمر إلا غموضاً. لم تقل لي سوى أنها مرافقة لشخص في المؤتمر. تكلمنا بعض الوقت عن الصور التي عرضت في المحاضرة السابقة. لديها حس فني واضح بدائي لم يصقل بعد كما أنه لم يفسد بادعاء المعرفة .

انتهت الاستراحة سريعاً . تقدمتني إلى باب قاعة المحاضرة وقالت لي قبل أن ندلف إلى الداخل: "هل يشغلك شيء بعد هذه المحاضرة؟"

كنتُ أنتوي أن أزور أبي وزوجته بما أني في القاهرة ولكني قلتُ لها:

"لماذا لا نخرج سوياً ؟"

ابتسمتُ ودلفنا إلى ظلام القاعة.

سهرتنا امتدت في الحسين إلى ما بعد منتصف الليل. تكره دخان الشيشة حولنا ولكنها تعشق الحسين و جوه.ثرثرنا بلا هدف في أول الأمر، لكن ملامح شخصيتها كانت تتضح لي .....شعبية بسيطة متوقدة الذكاء.

تسكن في حي السيدة زينب. أوصلتها لأقرب مكان تستطيع السيارة دخوله. نزلت من السيارة وغابت في الأزقة أمامي.

أراك الآن تتعجبين وربما تضعين خطابي جانباً وتشردين فيّ. تعرفين نوعية البشر الذين أصادقهم ، تندهشين وتتذكرين أنك كثيراً ما عاكستني قائلة: " طبعاً. لا يعجبك إلا المارون جلاسيه!"

قد يكتشف المرء في وقت ما الحلاوة الطحينية أيضاً، ويحن لحلاوتها الخام.

المهم !

خرجنا طوال فترة المعرض والمحاضرات، الأسبوع كاملاً. تبادلنا حوارات لا تنتهي وعرفت أنها تواقة للمعرفة بشكل لا يصدق. تريد أن تعرف أشياء كثيرة في السياسة، في الدين، في الأدب .....و في الجنس.

كانت تطرح الأسئلة وكأنها اكتشفتها لتوها، كانت تقطع حديثها قائلة :

" لم يجعلني أحد أشحذ فكري هكذا."

ثم تكمل نقاشها. أما أجمل ما فيها فهو اعتدادها بأفكارهاالوليدة وقدرتها على الدفاع عنها عندما نختلف. لا تخاف من اعتراضاتي ولا تهاب الاختلاف حتى ولو كان ضد كل ما تعرف.

كنت قد أخفيت عنها اسمي كنوع من أنواع اللعب الذي تعرفين أنه يستهويني في بعض الأحيان. وهذا الغموض حفز روحها أكثر، وكلما حاولت معرفة أي شيء عني عندتُ إكمالاً للعبة. تيأس قليلاً ولكن تكمل حوارها الحي الصاخب وهكذا .

البنت عمرها واحد وعشرون عاماً.

انتهى المعرض ولكننا تقابلنا كثيراً في القاهرة وفي بعض الأحيان في الإسكندرية.

قالت لي ذات مرة أريد أن أعرفك على أختي. لم أمانع. تركنا السيارة و عبر أزقة لا تنتهي وبيوت نصفها هدد والنصف الآخر آثار خَربة، سرنا حتى وصلنا إلى مكانها. شقة صغيرة لكنها تعتبر السطوح جزءاً منها. أرتني

النباتات التي تزرع الموزعة بجمال على السطوح، والسلحفاة القابعة في ركن منه، والقطيطات التي تتقافز حول أقدامنا. وفي الشقة أشارت إلى الكمبيوتر الجديد بفخر. قدمتني إلى أخيها الأصغر وأختها ذات الثلاث عشرة سنة. كلهم لهم نفس الملامح وربما كانا أجمل منها ولكنها ذات حيوية متدفقة يفتقدها الآخران.

جلس ثلاثتهم حولي وكلمني أخوها عن المعهد الذي يدرسان فيه علوم الكمبيوتر، أما هي فكانت تنظر إلينا بسعادة ظاهرة.

عندما خرجنا في اليوم التالي حكت لي عن أسرتها كلها. خيانات متبادلة بين أبيها وأمها. طلاق..رحيل كل في طريق. كرهها لهما وفي نفس الوقت تحاول التماس الأعذار لهما عن الحياة البائسة التي يحيونها.

ثم قالت فجأة وكأنها تتخلص من سر يثقل على صدرها :

"الكمبيوتر الجديد هدية من إنريكا. هي من كانت أرافق في المعرض الذي قابلتك فيه."

ثم أكملت ضاحكة :

"أنا أعشق الرجال ولكني لم أقربهم أبداً. علاقتي الآن مع ...إنريكا. تعرفت عليها قبل أن أقابلك بفترة قصيرة. هي برازيلية تحمل الجنسية الأمريكية. أمها من أصل عربي شامي وتهيم عشقاً بمصر وتكره سياسة أمريكا."

نزلتُ من السيارة وقفزتُ جالسة على سور كورنيش النيل. تركتُ السيارة ووقفت أمامها.

فأكملتُ : "هي تعشقني. أنا في بعض الأحيان أحبها وفي أحيان أخرى أكرها حتى الموت. أساعدها في بعض الأمور ، تعتبرني سكرتيرتها. أهدتني هذا ال(شوز)."

تلاقينا جسديا ربما أربع أو خمس مرات. تحافظ على عذريتها ببساطة وبلا خداع.

تقول وهي تستلقي جواري: "أنت أول رجل في حياتي. لا أحب أن أستغل إنريكا ولكني أشفق عليها وفي بعض الأحيان أحبها فعلا. فهي عجوز ووحيدة ....وأنا لا أُضار. عرفتني على كل أصدقائها هنا في مصر. كلهم مستوى عالٍ. إنها تحب مصر وبصدق ...ربما ....."

صمتتُ فلم أقاطعها ثم أكملت بعد برهة : "ألا تفهمني؟ الأجانب لا يهمهم شكل العلاقة. صِدْقها فقط سحاق محاق لا يهم."

فقلت معلقاً: "ولكنه حرام."

قفزت ضاحكة: "و ما نحن فيه الآن. هل يُدخلنا الجنه يا حاج؟"

كان جسدها فتياً قوياً، قدماها و يداها كبيرتان ويدلان على أصولها الشعبية.

"ألن تقول لي من أنت؟ لماذا تنكر أسمك وتُخفي شخصيتك؟"

"لأظل دائما في مخيلتك مميزاً ."

"لقد غيرتما حياتي تماماً ؛ أنت وإنريكا."

كنت قد قررت أن أنسحب تماماً، عندما هاتفتني في الإسكندرية على الهاتف المحمول قائلة: "هل لي أن أراك فورا؟"

فقلت: "الآن. لا أستطيع، ربما غداً مساء."

"أرجوك لا تتأخر."

سافرت إليها،بادرتني قائلة وهي تمسك يدي:

"ستأخذني إنريكا معها إلى الولايات المتحدة ـ أمريكا ـ سأتعلم هناك أشياء لاحصر لها . إنها تؤمن بي وتقول عني ذكية وها أنا أستطيع الآن أن أتكلم الأنجليزية في أقل من أربعة أشهر ـ نصف نصف صحيح ـ ولكني أتقدم. كما أعرف عدة كلمات برتغالية أيضا. تعرفت على ناس لم أكن أحلم بمعرفتهم.

سأدرس في أمريكا. شيكا بيكا. أدرس التمثيل والإيقاع والرقص. سأعمل حتى أجن. سأسافر بعد غد. سريعاً. أليس كذلك؟! رويت لإنريكا كل شيء أعرفه عنك. قلتُ لها كل ما حدث. تريد أن تتعرف عليك."

فقلتُ : " Never وهذا معناه ....."

قالت باحباط " مستحيل ! "

سافرت وكانت تهاتفني كلما سمح لها الوقت أو النقود. آخر مرة اتصلت، حكت لي عن كل جنون حياتها هناك. تعرفت بشاب إيراني وصفته بالساحر وآخر إيطالي سليل آلهة الرومان. ولكنها قبل أن تغلق الخط قالت : "أنا أحبك."

فقلتُ : "وكل الذين تعرفين الآن ؟"

فقالت : " لا . أنا أحبك أنت."

تسألين كيف انتهت العلاقة. النهاية مع الهاتف المحمول.

-٢٠-

يُنسج الحب من الوهم والحقيقة. غُلالة أسطورية من الممكن والمحال.

تلك العلاقات الثلاث التي أدهشتني نفسي بجمعها معاً. ماذا أثبت؟

هل كنت أحب الثلاثة معا؟ لا. لا أجمع معهن يلدز. أي مقابلة بينهما! في أي جانب كانت الحقيقة وفي أي جانب كان الوهم؟

لقد أوحشتني الكتابة عنها. حاولتُ في هذه الحالة الثلاثية أن أبتعد عنها قدر استطاعتي. أُخرج نفسي منها.

بماذا أصف أحاسيسي تجاههن .....الغُلمة .....الحب؟

شوشو لم تمنحني سوى خجلاً طفولياً ممتعاً ورقة تفوق الوصف،نهى الجرأة وعنفوان الجسد أما يسرا فعالم الخباء السحري.

الثلاث أصغر سناً من يلدز.هل كنت أثبت لنفسي أنني قادر على جعل الفتيات الصغيرات الجميلات محبات ومغرمات؟ هل هي أوهام منتصف العمر ؟.....إذا انتصف فعلاً .

كيف أكون صادقا وكانت تمر عليَّ ثلاث أيام متتالية أحتضن كل مرة فتاة مختلفة، وأبادلها صادقا مشاعر وأحاسيس الحب.

كنت قد نسيتهن تماما قبل الحادثة ولكن التداعي خلقهن مرة أخرى. ألا يدل هذا على ارتباطهن بديزي؟

وأنا أستعيد علاقتي بهن اكتشفت أننا كنا نتكلم كثيراً جداً. قد يكون لأجسادهن وجود قوي ولكنه مؤقت، ممتع نعم لا أنكر. لكن في كل مرة كنت أتلامس مع إحداهن كانت ديزي تخطر على بالي وأفكر فيها كل مرة بشعور

مختلف. قد أكون شجعتهن الثلاث على البعد والخروج. نهى ويسرا ....كأني أحثهما على تركي، أما شوشو فخجلها الأصيل وحياؤها و عذرية روحها فكانوا كافين.

هل جرحت أي منهن؟ لا أتصور هذا. قُطعت كل الأخبار عندما بعت الشقة وألقيتُ الهاتف في القمامة.

تذكرتُ الآن نبلاء العصور الوسطى الذين كانوا يعشقون " أميرتهم " ومهما ارتحلوا وحلوا في أوطان بعيدة، ومهما مارسوا من علاقات، فالحب لها وحدها. أي عته!!

وكلما أقسم ألا أراها، أندفع لرؤيتها. كل المحاولات هباء. ما إن تهل حتى يتبخر غضبي وملل وسيطرتي .

مر كل هذا سدى. يا إلهي !

ومهما حدث منها أقترب. فبعد غياب طال قدر استطاعتي قابلتني تحت البيت ووقفت تنتظرني ثم قالت لي:

"حدث شيء سخيف."

سكت ولم أعلق.

"لقد ضاع البروش الذي أعطيتني إياه . لستُ أدري كيف ضاع ، كنت أضعه ولم أجده . سقط في السيارة ، في الأكاديمية ، أو في الكلية لست أدري."

بالله عليك ماذا تقولين غير ما قلت أنا :

" فداك كل شيء . "

يا وجع القلب ومتعته !!!

-٢١-

أي منطق في الأحداث السابقة . الحمد لله أني أكتب لك أنت، فالحياة دائماً أقوى من تعسفات الخيال. لو كنت أؤلف رواية لما اقتنع القراء بشيء.

أتذكر عندما قرأت "مرتفعات وزرنج" والنقد عنها.شكك نقاد كثيرون أن تكون (إملي) هي الكاتبة ورجحوا أن الكاتب الحقيقي هو أخوها (برانويل) رغم سكره وإدمانه. قالوا كيف يتأتى لفتاة قليلة التجربة ولم تبرح قريتها أن تكتب عن كل هذه المشاعر. ودليلهم أنها لم تذكر من أين أتى(هيثكليف) بثروته،ولكن أليس هذا بالدليل المضاد،لأنها لو كانت لم تكتبها فكان أخوها ـ العارف،ذو التجربة ـ سيكتب مصادر هذه الثروة ويبررها.

أما المازني في "إبراهيم الكاتب" فنقدوه بأن بعض أحداث القصة غير منطقي ومن المرجح أن هذه الأحداث قد مر بها الكاتب أي المازني ولكنه لم يكتب الأسباب الحقيقية ولذلك جاءت الرواية مسطحة وبلا دراما حقيقية.

ولكن أي منطق ملزم يقع في الحياة ؟ من السهل وضع الأسباب والحبكة لقصة ما لكي يقتنع قارىء ما ، ولكن ماذا تفعلين في حقائق ترويها كما حدثت؟

تصارحنا في دقائق . رفضت ببساطة وكأن الموضوع لايخصها ولايخصني.

"أحبك."

"آسفة . أنا لا أستطيع."

المشاعر لا تحلل ولا توضع تحت مجهر . وليس لكل شعور رد له يساويه في المقدار ، لكن من الممكن أن يضاده في الإتجاه أو يؤول به للعدم.

هل فعلا وراءها سر ما؟ حبيب مهاجر؟ راحل؟ .....ماذا سيفيد كل هذا؟ .....لا شيء.

هل لو كنتُ عقلتُ كل هذا كان اختلف وضعي الآن؟ وحتى لو اختلف فأنا حقيقة هنا. في الجزء الحقيقي يا تُرى أم الوهمي من الوجود؟

أي جانب من المرآة؟

-٢٢-

يقول المرض إنني غبت عن الوعي. الطبيب يقول ثلاثة أيام. أرى المحاليل تجري في عروقي. السن غائب في ذراعي اليسرى. ألاحظ كدمات زرقاء على أماكن كثيرة من جلدي. أصم أن يناولني الطبيب أوراقي والقلم. أسندها علي وركي ولكني أجد مشقة كبيرة في الكتابة.

سأكتب لكِ إن استـ .....

آسف ، انزلقت في غيبوبة أخرى لكني الآن أفضل كثيراً. يقولون إني أغيب أياماً.

كم لبثت؟ كم ليث صاحب القرية ؟ لا. سأركز لكي أكمل لك.

هل قلت لك إنني اشتريت الشقة المجاورة لها في البناية الجديدة؟

أظن هذا. اشتريتها باسم أخي. دفعت المقدم كل مدخراتي. فأنا متلاف للنقود على هواياتي كما تعلمين. لم أسافر في هاتين السنتين إلا إلي أخي كما قلت لك.

نعم ! تذكرت ما كنت أقصه عليك. بعد تصارحنا ...كأن شيئاً لم يحدث. كل شيء عادي.

اتصلت بي وقالت:

"أريد أن تتعرف على أمي. لقد مدحتُ لها في ذوقك. تريد أن تسلم لنا الشقة تسليم مفتاح. كاملة الديكور. كل شيء. ما رأيك؟"

تساءلتُ هل هي ترضية بشكل ما ؟.

تقابلت مع والدتها ورشا.جلسنا نحتسي الشاي في بيتهن. قدمتني ديزي إليهن : "صديقي العزيز."

أمها امرأة قوية، من المحجبات الشديدات .....مكياج مرسوم بدقة ولكن حجاب حازم. أظنها لم ترتحْ لي تماماً. كان شعوري متبادلاً معها.

أما رشا فبين بين. بعد بعض التفاصيل رضخت أمها أن يكون لي الرأي الأخير في الديكور. ذوقياً عرفت رأي كل منهن عن ألوانها المفضلة والطراز المتوقع. لم تتباين الأراء كثيراً. كانت ديزي أكثر تفتحاً رغم ميلها للألوان الداكنة. رشا وأمها حذرتان تقليديتان رغم محاولة رشا أن تبتعد عن تقليد أختها لكنها واقعة دون شك تحت حيوية شخصيتها، ويلدز نفسها تحب أختها بوضوح رغم العناد الذي قد يبدو في لحظات المشاغبة بينهما .

سألتُ الأم عن التكاليف المتوقعة .

"لن أقدم على شيء دون أن توافقي عليه يا سيدتي."

"هذا أفضل كثيراً."

تساءلتُ وأنا راجع إلى بيتي سائراً في تلك الليلة المتفردة :

" أفضل؟! "

" أفضل ؟! "

-٢٣-

تلاقينا عدة مرات نتيجة لأعمال الديكور. وكلما أسألها عن الماجستير تجيبني : "أكاد أموت من الملل، لا أستطيع أن أحتمل هذا أكثر من ذلك."

"هانت وقربت."

"ستحضر طبعاً."

"أخبريني فقط."

هل كانت تتصور أنني سأتخلف عن حضور المناقشة؟

عدة مرات تقول سيحدد يوم المناقشة ويختلف الميعاد،وهذا كما تعلمين واقع سيء في جامعاتنا. لكن في يوم أتصل بها فتقول :

"لقد ناقشت اليوم.بارك لي. "

ماذا كنت سأقول؟

" مبروك."

كم آلمني عدم حضورالمناقشة. كم كنت أريد أن أراقبها وهي تعرض عملها بكل ما تملك من ذكاء وخفة وحياة.كم أستاذاً تملكته الرهبة والرغبة وهو يستمع إليها. أستمع إلى نبرة صوتها واللثغة البديعة تأسر السامعين وتسحرهم.لو كنت أنا منهم !!!

تقولين أنني أهوى اللعب ، وكم من لعبة دخلت واستمتعت بها. لماذا أستكثر عليها أن تلعب هي الأخرى ؟

أنا ـ كما قلت لك ـ لم أخرج حتى تلك اللحظة عن القبول. لماذا لم أستطعْ أن ألعب معها تلك اللعبة التي بات من الواضح أنها تتقنها؟

أي لعبة تقصدين؟ كتب عبد العزيز صديقي من قبل قصيدة فيها :

لا تقل عن حلوة العينين شيئا ..أنا وحدي الملوم.

لا . لا .

ما هذا الكلام ؟ سئمت. لماذا أكتب لك ؟ لماذا ؟

-٢٤-

أطلعت مديري على رغبتهن في إشرافي على الديكور رغم أنه عملية من الباطن، كما كنت أفعل دائما في عمليات مشابهة. تكلم معي كثيرا عن الحياة ومفاهيمها من وجهة نظره. ثم دعاني للغداء مع زوجته. ما الذي أستشعره في هذا اليوم البعيد؟

ربما كان قولاً علقت به زوجته على انعكاس الضوء على المرايا هو ما أوحى لي بتلك الفكرة. مرت في بالي كبارق سريع لم أستوعب منه سوى الروح. رأيت مرايات ألف كل واحدة تعكس الأخرى ولا شيء أكثر من هذا.

لكني عندما رجعت إلى البيت واستلقيت في فراشي تتابعت انعكاسات المرآة حتى خلدت إلى النوم.

أنا لم أحلم بيلدز طوال الفترة السابقة، رغم أنك تعلمين كثرة أحلامي التي كنت تجدين متعة في محاولة تفسيرها بخليط من الفكر الشعبي وتأويلاته مع مزجه بمسحة فرويدية.

في هذا الحلم ، كانت التفاصيل غائمة . كل ما أتذكره صوت فيروز وهي تهمهم في مقطوعة "وقمح" والمقطوعة تعاد بلا بداية ولا نهاية وأحس أنني في بهو تملأه المرايا الضخمة وطيف يلدز خلف هذه المرايات ورغم الظلام الحالك فإنني أستطيع أن أميزها جيداً وهي تتباعد خلف هذه المرايات ، جسدي لا يتحرك لكني كنت أتابعها بسهولة ، كأن روحي معها على الجانب الأخر.

عندما أفقت ظللت أحملق في السقف ، أتابع بقايا الحلم مقرراً أن أنفذ ما خطر في بالي.

أخذت حماماً بارداً ، وجلست أرسم اللوحات التي سأريها لهن واللوحات الحقيقية الخاصة بي .

-٢٥-

تابعت الأم التفاصيل بدقة أما يلدز فقالت:

-لن أرى شيئا الآن. أثق في نوقك إلى أخر مدى ...مهما كان جنونه."

ثم استأذنت وتركتنا. كانت رشا صامتة طوال الوقت ولكن عينيها توحيان بالإعجاب. كنا نتقارب أنا وهي ببطء وثقة.

قالت والدتها:

-ألا ترى أن المرايا زائدة ، أقصد أكثر من اللازم."

فقلت بابتسامة ثقة : " الضوء هو ما يحكمنا . النور."

أومأت برأسها بغير اقتناع ولكنها أكملت:

-أرى رشا لا تعترض وديزي تثق دون أن ترى .....اتفقنا."

بعد ذلك، علمت من رشا أن والدتها وديزي سوف تسافران إلى لبنان. والدتها لإلقاء بعض المحاضرات وديزي للترويح عن نفسها بعد إرهاقها في التحضير للماجستير وقبل أن يبدأ العام الدراسي الجديد. أكملت رشا قائلة:

-أريد أن أعرفك على خطيبي . إنه زميلي."

أكمل الدائرة وأدخل عالم عائلتهن.

بعد سفرهما،روت لي رشا عن والدها المتوفى وعائلته الكبيرة العريقة. ثراء ما قبل الثورة. التأميم. ما بقى وما استُعيد كفاهن كثيراً.

لم أستطع أن أتخيل والدهما لأن والدتهما كانت تظهر بملامحها القاسية وحزمها.كان طبيباً رقيقاً محباً للأخرين،ثم رحل فجأة بلا مرض

أوحادث. ربما هذا ما جعل أرملته جادة هكذا. أرملة صغيرة وابنتين وثروة طائلة.

" ديزي تعمل وتصرف على نفسها في الأشياء الصغيرة ولكنها تلتجئ إلى ماما في تغيير السيارة أو الرحلات الطويلة. أما أنا " أكملت رشا " فأحضر نفسي لزوجي المقبل.أحبه وهو يجتهد قدر استطاعته."

فكرت أن أسألها عن ديزي وسرها الذي أستشعره ولكني أحسست أني قد أدخل متاهات موجعة.

وهل لو كنت سألتها كانت ستجيب ؟

الواضح أن رشا متعلقة بديزي قدر تعلق ديزي بها.

-٢٦-

أوتدرين ماذا قال المحامي في مرافعته ؟ ...تكلم عن الثعالبي والأئمة.

كنت أستمتع وأنا أنصت إليه .....كانت حالة الذهول تفارقني ببطء .

قال: "كتب أبو منصور الثعالبي منذ ألف عام تقريباً في كتابه (فقه اللغة) فصلا في ترتيب الحب وتفصيله عند الأئمة :

"أول مراتب الحب الهوى ثم العَلاقة وهي الحب اللازم للقلب. ثم الكَلَف وهو شدة الحب. ثم العشق وهو اسم لما فَضَل عن المقدار الذي اسمه الحب. ثم الشغف وهو إحراق الحب القلب مع لذة يجدها. وكذلك اللوعة واللاعج فإن تلك حرقة الهوى وهذا هو الهوى المُحْرق. ثم الشغف وهو أن يبلُغ الحبُ شَغَاف القلب وهي جلدة دونه وقد قُرِئتا جميعاً شَغَفَها حبا وشَعَفَها. ثم الجوى وهو الهوى الباطن. ثم التَّيْم وهو أن يستعبده الحب ومنه سمي تيم الله أي عبد الله ومنه رجل متيم. ثم التَّبْل وهو أن يسقمه الهوى ومنه رجل مُتَبَّول. ثم التدليه وهو ذهاب العقل من الهوى ومنه رجل مُدَلّه. ثم الهُيُوم وهو أن يذهب على وجهه لغَلَبة الهوى عليه ومنه رجل هائم."

طُبعت تلك الكلمات في رأسي أول ما سمعتها منه. ظللت أردد هذه الفقرة الفترة اللاحقة للمرافعة.

ما كل هذا الإبداع والغنى في الحب عندنا. ربما ما كانت هذه الفقرة تهزني من قبل. نعرف كل هذه الأوصاف ولكن لا نفكر فيها. إنها حقيقية.

ولكن منذ ألف عام ويزيد كانت الناس تفقد عقولها بسبب الحب.

طلبتُ من المحامي في الفترة اللاحقة التي سمحوا لي فيها بالقراءة ديوان مجنون ليلى .

المحامي اللئيم يريد أن يقنعهم بذهاب عقلي.لم؟ ليصل لأي شيء؟

نظرتُ إلى أمها في قاعة المحكمة والنيابة تدعي أن ما فعلته يهز أركان المجتمع ويفسده.

أي مجتمع هذا الذي لم يعد يعرف الثعالبي أو يقرأه !

-٢٧-

"وراء كل مرآة كائن يراقبك."

وكأني كنت أكشف سري أمامها، وأزيح أستاراً أنا واضعها، علّي أشركها خفية في التواطؤ وأجعل مراياي بللوراً شفيفاً فيربط عالمين ، فلايستأثر عالمي بعالمها أو ينعكس عالمها عليها مضاعفاً بلا حدود.

وراء كل مرآة كائن يراقب . وهذا الكائن كان أنا. منزوياً في عالمي المظلم أتابعها وأرصد أدق خلجاتها.

وراء كل مرآة وضعت كاميرات دقيقة، عيون بلا عدد نهمة لا تغمض، حساسة البؤبؤ والقلب. كائنات معدنية صغيرة متآمرة معي في مرح بارد. أنا أصفها هكذا بعدما نعتها مدعي النيابة بالآلات القذرة الخبيثة. كل كاميرا تصلني بها عن طريق شاشات الكمبيوتر التي وضعتها في الشقة المجاورة التي اشتريتها باسم أخي.

لم أصرح أبداً لها بأنني جارهن الجديد. انتظرت الوقت المناسب.

كنت أعيش معها.

كما توقعت ، اندهشت الأم من الديكور الذي أرهقني جداً في كل تفاصيله، ولكن رشا كادت تقبلني . أما ديزي فوقفت كثيراً تتأمل مرآة غرفة الجلوس وكأنها تخترق بعينيها سري المعكوس أمامها. ولما طالت وقفتها أقتربتُ منها ووقفت بجوارها ثم سألتها : " ماذا ؟ "

التفتت إليّ ثم نظرت إلى أمها ومنها إلى المرآة مرة أخرى ثم قالت وهي تنظر لعيني في المرآة : "لا أعرف! "

فقلتُ لها مقربا وجهي من المرآة .

"وراء كل مرآة كائن يراقبك . هل تؤمنين بهذا ؟ "

وقبل أن تجيب قالت أمها بحدة : "أنا لا أحب هذا الحديث."

لم تحول ديزي عينيها عن عيني. إلا أنني التفتُ إلى والدتها قائلاً :

"أنا آسف.كنت أمزح معها."

فقالت مكررة: "أنا لا أحب هذا الحديث."

هذه الأم ..... التي تكبرني بعدد من السنين أقل من الفرق بيني وبين ابنتها. هذه الأرملة شديدة الحرص والفطنة.

قلت محاولاً أن أخفف التوتر بيننا قدر الإمكان:

"ما زال في أيدينا أن نغير ما تشائين إذا لم يعجبك هذا."

فقالت رشا : " إن هذا الديكور على غرابته وشذوذه يروقني تماماً . ماما مارأيك ؟ وهو جد جميل رغم غرابته."

فقالت الأم : "ما رأيك أنت يا ديزي؟"

فقالت : "يهمني أن يمتلئ هذا الركن بالذات بالنباتات."

ثم بلهجة مرحة ملتفتة إليّ: "نشكرك جداً . عملك جميل ومتقن."

رددت مسروراً بحق: "أشكرك جزيل الشكر."

ولكني قبل أن أكمل جملتي لمحت المرآة تراقبنا ، فنقلت بصري بينها وبين ديزي وقلبي يغوص منقبضا من وزر لم أقترفه بعد.

-٢٨-

تتساءلين أي وزر وأي إثم . نعم كنت في تلك اللحظة أحس بالوزر والثقل رغم فرحي وخفتي .

ربما كان هذا ما جعلني لا أضع في الشقة الجديدة سوى مرتبة على أرض غرفة النوم وإضاءات عاكسة والكمبيوتر بشاشاته.

كان البراح الخاوي هو ما أحتاجه لينعكس عليّ ويُرَحِل أثقال روحي المتخمة بالحب و الإثم.

دعيني أبتدع لك أسطورتي الخاصة :

(آدم في جنته،بريئاً يحظى برضا الإله البارئ ورضوانه، يمسك بفاكهته المحرمة،يستمتع بنعومة ملمسها ورائحتها الفواحة. يقربها من أنفه ويسند خده عليها ويشعر بنضارتها ثم يرمقها بافتتان ويقضمها قضمة واحدة.

يا الله ما أشهاها تلك النكهة. ما لم يذق مثلها من قبل .

روحه كلها تتسامى ويتحد مع إلاهه، فهو بهذا يصل إلى النعمة الكبرى.

لكنه لا يتمالك نفسه فيقضمها القضمة اللعينة، ليستمتع بها مرة أخرى. هنا يكمن السقوط . لو يرشف المرء رشفة واحدة من نكتار الآلهة لأصبح منهم ولكنه يعبها كلها بلا توقف عباً عباً.)

لو اكتفيتُ بالمرة الأولى التي رأيتها فيها. وصارت تلك المرة مرة وحيدة متفردة،ربما لظللتُ أنا وآدم ، كلٌ في جنته يهنأ على الذكرى الحقيقية للفاكهة المحرمة دون الطرد .

ها أنا طريد جنتي. أتشكى وأتألم.

ولكن ألستُ أنا من آدم أكون ؟ فيم اللوم إذن ؟

-٢٩-

آه . لو تدرين ما معنى أن تشاهديها وهي تستيقظ صباحاً في أيام الإجازات بكسل ناعم، وأن تريها والماء ينساب على جسدها البديع ويتناثر الرذاذ ويبدأ جسدها ـ الرائع هذا ـ في الاختفاء التدريجي في ضباب بخار الماء الفضي. ولوعة القلب المشتاق لانتظار اللحظة الآتية بلا ريب وهي تمسح بكفها الصغير الجميل هذا البخار لتتبدى مرة أخرى في بشكير يلفها بلهفة مبرزاً مفاتن خلابة.

أن تتابعيها إلى غرفتها وتريها وهي تتأمل جمالها الخاص ثم وهي تتعطر وعندما ترين ظهرها وحبة ماء أفلتت من التجفيف، وهذه القطرة المارقة تنزلق ببطء في أول الأمر لامة معها رذاذ العطر ثم تسرع قليلا وفجأة تجري حتى تختفي في طيات البشكير قبل لحيظة من تركه يتهاوى أرضاً.

آه .لو تعلمين كيف تسرعين بالخروج قبلها بثوان لانتظار المصعد، وخروجها هي من شقتها واندهاشها اللحظي من مرآك. وعندما يجمعكما المصعد وتستنشقين العطر الذي رأيتها منذ لحظات تتعطر به، وعندما تنظرين إلى ظهرها وتتراءى لك قطرة الماء مرة ثانية وهي تنزلق على هذا الظهر المتواري الذي يُفصل عنك بسنتيمترات قليلة . أن تقعي تحت سحر الشفاه المتوترة بكلام غير مسموع لحوار عائلي ومحاولات الروح المستميتة لتدارك النقص بإعمال الخيال وبإطلاق الروح من جسدها الآسر.

أن يُحل أمامك فجأة سؤال عنها، قد حار عقلك في فك غموضه ، مهما كان هذا السؤال بسيطاً وتافهاً. كما قلت لك :

ـ آخر زر تُدخله في عروته في منامتها قبل النوم ؟

ـ كيف تلبس خفها البيتي أول استيقاظها ؟

كل الأسئلة.

مهما أحاول أن أصل أقف .

-٣٠-

لست أعرف ما إذا كنتُ مازلت أحكي لك بترتيب زمني متتابع أم لا.

كنت قد بعت أولاً أثاث البيت ثم الشقة نفسها ووضعت ما تبقى لي من نقود في المصرف ولكني سرعان ما استعدته ثانية لخاطر مر على بالي ووددت أن أنفذه وأكمل دربي.

كانت فترات الغياب الطويلة التي يُقفر بيت ديزي بدونها هي التي أوحت لي بهذا. أصبح عندي آلة طباعة بلوتر A node تستطيع أن تطبع صوراً حتى مقياس كبير ١٢٠ × ٨٠ سم.

ساعدتني هذه الآلة مع الكمبيوتر على إحياء شقتي الباردة بدفء وجودها. لو أريك بعضاً منها . . . . . .

هذه وهي مستلقية في فراشها، جذعها ملوي إلى جهة اليسار وساعدها الأيمن مرفوع فوق رأسها والأيسر ملقي على خصرها.

وهذه وهي تضع فنجان الشاي بعدما رشفت منه الرشفة الأخيرة قبل أن تهرع للنزول.

وهذه وهي تخط الحد الأخير لأحمر شفاه جديد، تجربه بلا اقتناع.

أما إذا دخلنا غرفة المعيشة فستجدينها مقطبة وهي تقرأ خبراً في الجريدة وأوراقها مجعدة بين يديها.

وهذه وهي تتابع فيلماً كوميدياً لشادية ، تضحك وبيدها كوب من اللبن المثلج.

أما في المطبخ ، تجدينها وهي تحاول طهي وجبة صينية تعلمتها من الكتاب الذي بجوارها.

قال المحقق أنه وجد أكثر من ثلاثة آلاف صورة مقياس صغير وسبعة وعشرين بوستراً كبيراً ، غير أسطوانات الكمبيوتر التي تحتوي على الأصل.

اللعنة عليها امرأة البواب .

-٣١-

ستة أشهر أمدٌ لحظيٌ جداً في تلك الجنة الجهنمية التي عشتها .

في تلك المدة وقبل أن ألقي بالهاتف ، اتصل بي سمير ، صديقي الذي يحضر للدبلوم في الأكاديمية وقال لي أن ديزي أصبحت عصبية ، وأنها أحرجت إحدى الطالبات بشدة .

أكنت أنا السبب في هذا التوتر الذي اعتراها؟ هل إحساسها بأني جار لصيق بها غيّر من طبيعة الأشياء حولها؟هل أدعي لنفسي شيئا لأساويه؟

قلت لها أنها شقة أخي وأني أجهزها له، وأني أقيم بصفة مؤقتة بدلاً منه. من مراقبتي لها لاحظت هذا التوتر البسيط.

في بعض الأحيان كانت تحدق في مرايا غرفتها بشكل يفزعني ويجردني من طمأنينة اختبائي . كم من مرة تصورت أنها ستمد يدها وتكسر هذا الحاجز الفاصل بين غرفتينا . لو تعلمين كيف صببته ليكون عازلا للصوت حتى لا أفضح دقات قلبي .

كانت تلك الصور الكبيرة المعلقة في كل مكان في الشقة من درجات الأبيض والأسود . كان في استطاعتي أن أطبعها ملونة ولكني أعشق الدرجات اللونية هذه .....وانتفاء اللون هو الدليل الأمثل لعقلي على وجودي على الجانب الآخر من ألوانها .

أعرف أن اللقطات التي أخذتها لها أعجبتها ، وأراها الآن تتأملها الواحدة بعد الأخرى .

ماذا لو واجه المرء فجأة آلاف الصور عنه لكل لحظات حياته؟أي شطط!

أنا رأيتها وسط شقتي وقد أذهلتها الدهشة وهي ترى نفسها آلاف المرات وآلاف الدقائق في وقت واحد .

ستة أشهر من اللفتات الرقيقة مثبتة على الحوائط أمامها ، لقطات نمحو الزمن وتؤكده في نفس اللحظة .

أعطتني هذه الصور الفرصة أن أتعرف على أدق ملامحها لأرسمها.

أنظر إلى جبهتها وأظل أعرف أبعادها في كل اتجاه ، درجة لمعان الضوء، بعد حاجبيها عن بعضهما،ميل عينيها ، شكل أنفها وذقنها، كل خط دقيق...

حتى أتقنت رسمها. لماذا وأنا عندي آلاف الصور هذه ؟ .... لأن الخط الذي تضعيه على الورقة يأخذ منك مثلما يعطيك . كنت أريد أن أقترب أكثر ، وكأني أشارك في وجودها .

هنيئا لهم الآن بكل تلك الصور المطبوعة والمرسومة . كل يوم بعد أن أنعب من الكتابة إليك ، أخط رسماً لها وكل مرة مختلفاً. في لحظة ما فكرت أن أرسل لك هذه النسخ هدية مع خطابي هذا ولكني تراجعت ، ولست أعرف مصيرها عندما أُزَحْل من هنا . قد أرسلها إلى نفسي فيما بعد.

-٣٢-

أشد ما آلمني ما كتبته الجرائد . كيف تُفهمين العامة والغوغاء ؟

عنوان عريض (فضيحة في ستانلي) . أي هراء ماكتبوه ! آلمني أن ماكتب نال من خصوصية علاقتي بها،عرضها على الملأ الغبي ، تكلم الناس عنها ولو بالرمز.

غباء امرأة البواب وخبثها الفلاحي و فضولها . قد تسخرين إذا نعتها بالمتلصصة.

عندما حاول الدفاع نفي تهمة التلصص التي زعق بها ممثل النيابة في قاعة المحكمة ، قال إنهم لم يعثروا على أية صورة لرشا أو لأمها ، كأنهما لم تتواجدا في نظري ، أكثر من ثلاثة آلاف صورة ولا تحتوي أي لمحة من أي منهما . أين كانتا ؟ ألم تشاركاها البيت ؟

ربما عليّ أن أعترف لك . من القضمة الثانية ضللتُ في متاهات هذا الوحش الذي يلتهم القلوب بأرواحها . قاومت ولكني مع كل بزوغ لشمس جديدة يلفني بخيط حريري جديد يُزاد للأحبولة.

ازداد اضطراب عملي وعدم تركيزي حتى نصحني مديري أن أرتاح قليلا في إجازة مدفوعة الأجر . لم تزدني هذه الراحة إلا هوساً حقيقياً ، وقل خروجي من البيت حتى ندر . ولم يحمسني أي حافز حتى ولو كان محاولة التواجد معها بأية صدفة مخططة كانتظار لمصعد أو أي لقاء عابر في مدخل العمارة.

كانت امرأة البواب تأتيني في بعض الأحيان بطعام أطلبه منها من خلال الأتركم . أسد فتحة الباب بجسدي وآخذ منها الأشياء وأعطيها حسابها ، لكنها أتت مرة متعمدة بقسط الصيانة الشهري لتتأكد مما لمحته في مرة سابقة . هكذا قالت للصحافة . لمحتْ صورة كبيرة لديزي وهي تحمل حقيبة أوراقها وترمي بيدها الأخرى حقيبة يدها الصغيرة .

" لم أصدق عيني وقلت هذه صورة الست ديزي اسم الله عليها . وطبعا كان لابد أقول للست والدتها . أمانة يا بيه !"

ولكني أقول لك أن هذه النهاية كانت متوقعة بأية حال . كنت أتذكر وجهي معكوساً على شاشة الكمبيوتر وهو يطل عليّ بوجه أكاد أتذكره ولحية طويلة وعيون غائرة بهالات سوداء كابية وشعر أهوج .

" كنت أخاف منه.مجنون. خسارة البيه. كان سيّ الفل . لكن الأمانة يا بيه."

ذهبتْ إلى أمها قالت لها عن الصورة. واجهت الأم ديزي قائلة:

" هذا ما نجنيه منك."

كل هذا رأيته أنا ، حركات يدها المتشنجة ...أما ديزي فلم يظهر عليها أي اضطراب وأمسكت بالهاتف وبعد دقائق تركت المكان وأمها تفكر كيف حصلتُ على هذه الصورة .

في التحقيق قيل الكثير .

دخلت ديزي مع المدير . كان جرس الباب يتقطع على فترات طويلة وعندما فتحت الباب اندفعت ديزي ودخل مديري ووراءهما والدتها ورشا وامرأة البواب .

تم كل هذا في أقل من ثانية . لم أسمع تماماً ماذا يقولون . فقط رأيتها هي، هي التي أحكي لك عنها ، هي التي أود أن أظل أكتب عنها حتى يجف مداد روحي ، رأيتها تتأمل صورها التي تغطي الجدران كلها . كانت أمها تهزني وتصرخ في وجهي ، لكني كنت أتابع ديزي وهي تمر ببطء على الصور وتلمس إحداها وتمر بإصبعها عليها .

ثم رأيت أناساً كثيرين . وأمها وهي تتجه إلى صورتها وهي تمشط شعرها وتجذبها فتنشق الصورة فجأة و يجرح الشق الأبيض المتعرج جمالها وأنفلتُ أنا من مديري وأرى ديزي أيضا وهي تلتفت على صوت الورق وهو يُمزق وتنظر بهلع إلى صورتها الممزقة وتندفع سوياً إلى أمها ، ونتلامس للمرة الأخيرة وأنا أدفع أمها بعيداً مزمجراً فيختل توازنها فتترنح،لكن يلحقها كل من مديري ورشا ويسندانها . وأشاهد ديزي وهي تنسحب من آخر وجود حقيقي لها في عالمي.

-٣٣-

بالأمس جاء المحامي وقال لي أن ديزي أقنعت أمها بالتنازل عن حقهما في هذه القضية ، ولكن يبقى لنا حق الدولة المدني وهو يسعى بكل مجهوده إلى إثبات التشوش الذهني الذي كنت أعاني وقتئذ.

أوتعرفين ماذا فعلتُ ؟ طردته ، ثم أغلقت أنوار الغرفة ونمت بعمق لأول مرة منذ فترة طويلة .

عليّ الآن وأنا أتعقل كل شيء أن أستمر في كتابة خطابي هذا إلى نهايته.

في اللحظة الأخيرة من لمستها السرمدية تلك ، تلاقت نظراتنا ومنها فقط عرفت سر كل شيء. سر تعلقي بها، سر رفضها، وسرها الذي تخبئه.

هذه الأسرار الثلاثة تفتحت وضاع عبقها المختلط وتلقفته روحي بلهفة فك الطلاسم وهنا تساوت الأضداد وانمحت .

فلو كنت ما زلت تتابعين القراءة فاعلمي هذا وتيقنيه . . . . . .

تَمَتْ

الإسكندرية ٢٠٠١

alexandranius@yahoo.com

تجليات
أدبية

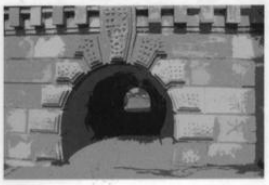

تصورت وأنا صغير، ربما ابن تسع سنوات، أنني كذوب. فقررت أن أعرف مقدار سوئي هذا. عزمت عد الكذبات التي أقترفها كل يوم. من أو ما الذي أدخل في روحي أني كذوب؟ لست أدري ... حاولت أن أتذكر ولم أفلح.

مر أول يوم لعجبي ولم أكذب. عزيت هذا لكوني أراقب نفسي وأضعها موقع الاختبار. لكن مر اليوم الثاني والثالث نا صع البراءة. من بعيد وأنا أتأمل هذا الآن، أحسب أن هذا ربما كان بسبب كوني قليل الكلام ومنطو إلى حد ما.

في اليوم الرابع حتم عليّ أن أكذب لأنقذ نفسي من خطأ ارتكبته. لا أتذكره الآن، قد يكون كسري لشئ ثمين. اتخذت قراري سريعا. لم أكذب واعترفت ببساطة بفعلتي وتهيأت لاستقبال عقاب ببطولة شهداء أهل الخندق الذين كنت أعرف قصتهم من وقت قريب. رأيت نفسي مدفوعا معهم في خندق ملتهب متأجج ... غير أن كل شيء مر بسلاسة ... حتى فكرة الاستبسال والشهادة ضاعت ولم تعد لها أي قيمة. فقررت أن لا أكذب قدر استطاعتي. ربما كنت طفلا خبيثا مناورا. كنت أتيقن رغم نجاح اختباري أنه لابد لي من الكذب في وقت ما، فتركت الباب مواربا، بهامش ضيق.

تصميم الغلاف: أحمد خلف

ميريت